مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٤

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع

إدوار الخراط

محطة السكة الحديد

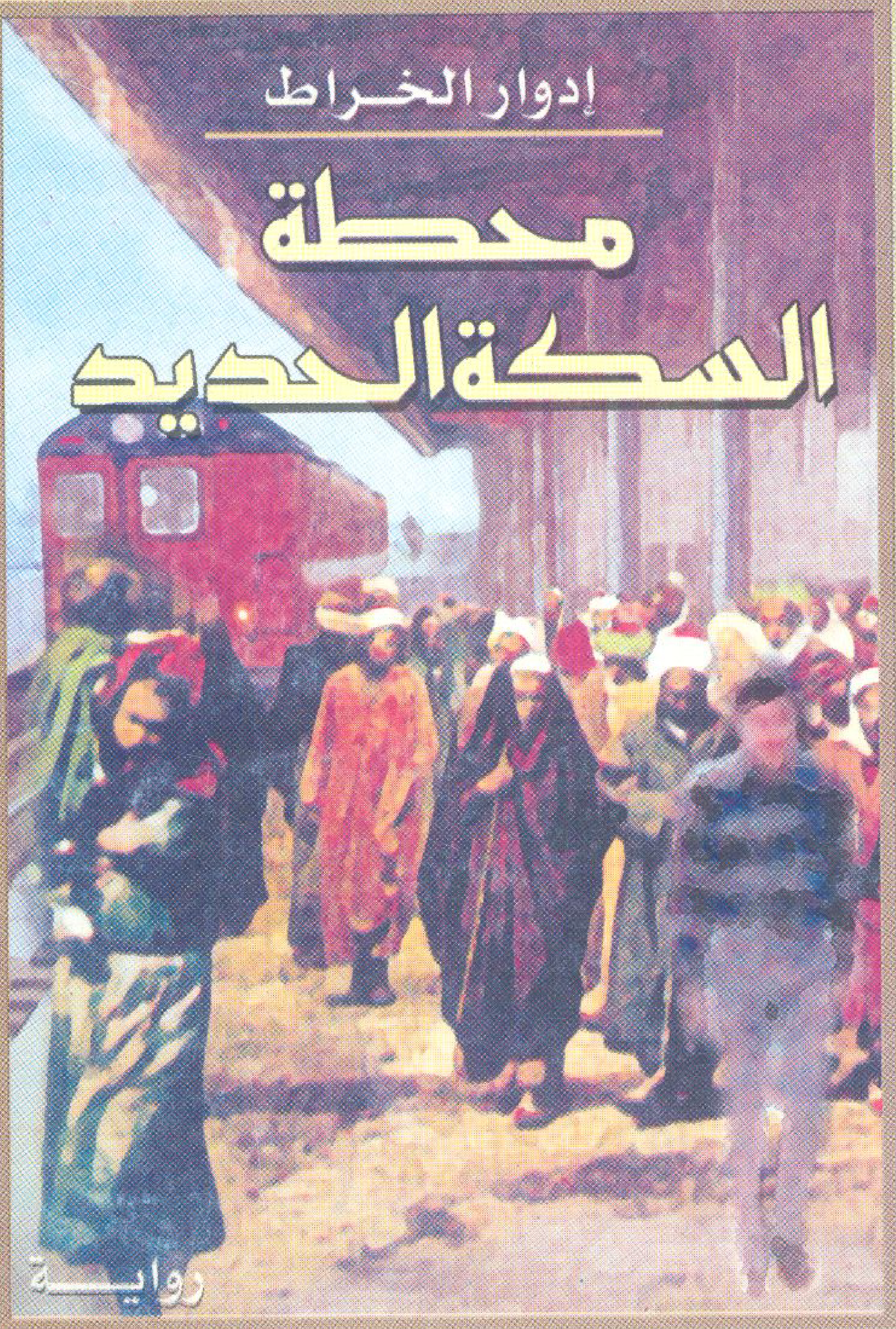

رواية

الأعمال الإبداعية

١٠

سنوات

إهـــــــداء ٢٠٠٧

اسرة المرحوم الدكتور / السيد عبد الحليم الزيات

جمهورية مصر العربية

محطة السكة الحديد

روايــــة

إدوار الخراط

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٤

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

إشراف : د. سهير المصادفة

محطة السكة الحديد - رواية - إدوار الخراط

الغلاف والإشراف الفنى :

للفنان : محمود الهندى

للفنان : محمد كامل

الإخراج الفنى والتنفيذ:

صبرى عبدالواحد

الإشراف الطباعى:

محمود عبدالمجيد

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

السيدة التى جعلت من الكتاب وطناً !

د. سمير سرحان

مرت عشر سنوات منذ إنشاء «**مكتبة الأسرة**» وأذكر أنه كان يومًا مشهودًا، حين جلسنا مع عدد من المثقفين والوزراء والمفكرين حول تلك السيدة العظيمة التى كانت عيناها تشخص إلى السماء حيث أحلام كثيرة تدور بذهنها الذى لا يتوقف عن التفكير أبدًا.

كانت منذ سنوات قد أنهت رسالتها من الماجستير، التى كان من نتائجها ضرورة إصلاح أحوال المدارس الابتدائية، ورفع مستواها العلمى والتعليمى، وحتى مستوى الأبنية والخدمات.. فكان الأساس فى ذهنها، كما أدركت بعد ذلك معظم الدول الكبرى أن العملية التعليمية هى أهم ما يميز الأوطان، وأن الطفل الذى يمثل البذرة الأولى فى بناء مستقبل أى وطن هو البداية الحقيقية، كنا نتعجب جميعًا فى صمت ونحن جالسون حول تلك المائدة الصغيرة.. لماذا لم يفكر أحد من قبل فى الطفل، ولا أعنى صحته فقط، أو ما قد يصيبه من أمراض، أو مستوياته الاقتصادية

والاجتماعية.. لماذا لم يفكر أحد فى الطفل الإنسان؟! أى فى عقل الطفل ووجدانه، والانطباعات المختلفة، التى يكتسبها من عملية التعلم، وبخاصة من القراءة الحرة، وليس قراءة الكتب المدرسية فقط.

وكان الطفل المصرى فى ذلك الوقت معتادًا أن يمسك بالكتاب المدرسى ويصب عليه كل ما فى طاقته من كره وسخط، ويحفظه حفظًا آليًا بلا فهم، ويُفرّغ هذا الفهم على الورق لينجح وينتقل من سنة دراسية إلى أخرى، أما فى آخر السنة فكانت العادة أن يرمى الكتاب المدرسى من النافذة، كأنه قد تخلص من عبء ثقيل.

كانت السيدة العظيمة، التى قُدّر لها أن تعنى بمستقبل مصر، وأن تكرس حياتها لبناء هذا المستقبل، تفكر فى الطفل كإنسان، وكعقل، وكروح،.. لقد اكتشفت أن كل ذلك لا يأتى إلا بالقراءة، والقراءة خارج المقرر الدراسى، كما لا يأتى أيضًا إلا من خلال كتاب يوضع فى يده ليحبه شكلاً ومضمونًا، ويحتضنه فى سريره وهو نائم، ويطلق من خلال المادة التى يقرؤها فيه، العنان لخياله، فيسافر من خلال هذا الكتاب إلى عالم سحرى من الأماكن والأفكار والمشاعر والرؤى.

لمعت العينان الذكيتان بعمق الفكرة، وأهميتها لوطن يبنى نفسه ويضع نفسه على مشارف القرن الحادى والعشرين، وبعد أربع سنوات من افتتاح المكتبات العامة فى الأحياء الفقيرة والمُعدَمة،

كانت الفكرة الرائدة قد اكتملت فى ذهنها فأصبحت سوزان مبارك صاحبة أعظم مشروع ثقافى فى القرن العشرين وأوائل الحادى والعشرين.. «**مكتبة الأسرة**».

وكانت فكرة مكتبة الأسرة بسيطة وعميقة فى نفس الوقت، وهى أن نقوم بغرس عادة القراءة فى نفوس ملايين أبناء الشعب الذين لم يكن الكتاب من قبل جزءًا من حياتهم.. وأعتقد أن هذا الهدف قد نجح تمامًا، فقد كان بعض من يسخرون من الشعب المصرى، محاولين الحط من قدره يصفونه بأنه شعب **الفول والطعمية**، وأعتقد أنه الآن وبعد عشر سنوات من صدور مكتبة الأسرة، أصبحوا يسمونه بلا تردد شعب الكتاب والقراءة والعلم والمعرفة.. لكن الهدف الأعمق والأسمى كان إعادة بعث التراث الأدبى والفكرى والعلمى والإبداعى الحديث لهذه الأمة، وهذا يؤكد بالفعل لا بالكلام ريادتها وقيادتها الثقافية والفكرية فى عالمنا العربى، كما يؤكد عظمة ما جاء به عصر التنوير المصرى لينقل العالم العربى كله من عصور الظلام المملوكية والاستعمارية إلى شعوب تعيش عصر العلم والتقدم، وتبنى شخصيتها الثقافية وحضورها الثقافى على مدى العالم..

وها قد أصبحت مكتبة الأسرة بعد عشر سنوات من الجهد المضنى والمتواصل تقدم أكثر من عشرة ملايين كتاب موجودة الآن فى كل بيت مصرى، تحمل صورة السيدة التى فكرت ونفذت هذه

الذخيرة من الفكر والإبداع التى تثرى عقل ووجدان كل مواطن طفلاً كان أم شابًا، ليس فى مصر فقط، وإنما فى العالم العربى كله.. وأصبحت المادة التى تضمها هذه الكتب هى أساس راسخ لتكوين مواطن المستقبل، وأصبحت معظم الدول العربية والمؤسسات الدولية تطلب تطبيق التجربة المصرية على أرضها.

هل كان مجرد حلم لسيدة عظيمة شخصت بنظرها إلى السماء باحثة عن المستحيل، أم كان مجرد حلم رائع، هائل القيمة والحجم وتحقق.. تحية لهذه السيدة العظيمة «**سوزان مبارك**»، واحترامًا وحبًا بلا حدود على قدرتها لتخيل المستقبل، وبناء إنسان جديد لوطن جديد.

وستظل صورة السيدة **سوزان مبارك** موجودة على كل كتاب، وفى كل بيت تُذكّر كل مصرى أن الحلم الحقيقى ليس بالمال، وليس بالتهافت على الماديات، إنما هو «**المعرفة**» وبدون معرفة فى هذا العصر لا يوجد وطن، وإذا فقد الإنسان الوطن فقد ذاته.. بل فقد كل شىء يربطه بهذه الحياة.

د. سمير سرحان

(١)

كانت خبطات القطار المنتظمة الرتيبة قد اتخمت نفسه، بدقاتها المستمرة. لا تتوقف، لا تتريث، تتقدم دون وهن فى تصميم دائب يأكل من نفسه امتدادات طويلة، فى طريق لا ينتهى. وكان قد نام قليلاً، وشبعت دماؤه، فى تهويم النعاس، من هذا الدق المتواصل. وبه شىء كأنه سكر وخدر من هذه الضربات العنيدة التى لا تنى، مدفوعة إلى الأمام، فى عزم لن يقف أمامه شىء.

وفتح نافذة القطار، وأفلت لحظة من الضوء المصفر المترب الذى يسقط فى العربة المزدحمة، يهتز كسائل كثيف مشبع بإنسانية متعبة هدتها هزات الرحلة المتعاقبة. وهبت

عليه من الخارج ريح الإسكندرية الممدودة أمامه تحت سماء الليل، والقطار يهتز مندفعًا يدق الأرض إليها فى مجهود أخير. وأنوار الإسكندرية تومض مرمية على انحناءة خط طويل، واعدة بأمانى غامضة، براحة الوصول ودفء المدينة. ونسمة خفيفة ملحة هينة تأتيه عبر الخلاء المعشوشب بالحشائش الصحراوية الطويلة، فيها عزاء ينفسح له الصدر، ويقبل طراوته.

عاد إلى مقعده، وكان يخيم على العربة جو ثقيل مكتوم، وقد خلع العسكرى الضخم الذى تكوم أمامه فى سترته السوداء، طربوشه واكتفى بطاقيته الميرى من العبك الباهت تشد ما بقى من شعر شائك رمادى خشن على صلعته المتينة، وقد سكت الطفل الذى يلتصق ببطن أمه فى ملاءتها الريفية وراح الآن يمص ثديًا جافًا مهدلاً مجعدًا لا تكاد الملاءة تخفى بذاءته، وما زال بائع السودانى يمر بالقطار، حاملاً قفته وقراطيسه الملآنة، والشيخ الأعمى الذى يبيع النعناع وآيات القرآن وعدية يس، والعيال العفاريت الذين هدهم التعب وبحت أصواتهم وما زالوا بعد ينتقلون من عربة إلى أخرى فى خفة، ينطون وينادون على الليمون للعطشان والكاكولا والبيبس، ويقرقعون على

الجرادل المليئة بالماء والزجاجات. وقد سقطت الرؤوس على المقاعد الخشبية فى استسلام كأنها لم تعد ملكًا لأصحابها بل ملكًا لقطار يدق بهم الأرض فى تصميم، إلى غاية لن يبلغها قط.

تعبت عيناه من النور المسلول الشاحب المعلق كالتراب فى القطار المهتز إلى الأمام بسرعة لا تتناقص، وهو يكاد يسمع مصمصة شفتى الولد الذى يرضع من بز ناشف، وتتداح فى نفسه رغبة فى أن يعطى من نفسه لهذه العلقة الانسانية الصغيرة التى ما تنى تتطلب الحياة، رغبة حنانة كأن نفسه قد ذابت فى وسط هذا الجمع من الناس، وامتزجت بهم من الخارج، بعصارتها الثقيلة. أذابتهم معًا تلك الساعات الطويلة التى قضوها فى القطار فكأنهم ألصق من الاخوة: الأفندى الرث الذى يجلس إلى جانبه مع حقيبته القديمة المربوطة بدوبارة، فلا شك أن قفلها قد خرب. وحتى العسكرى الذى يشخر فجأة فى نومته المليئة، ويتنحنح من كرشه، ويعدل من جلسته القلقة على خشب الكرسى. وهذه الأم الريفية الأصل بثيابها ومدورتها البلدية على عظام وجه مرهف بشهوات حادة لا رضاء فيها، بل هى لهفة ثاقبة لم تعرف الشبع أبدًا، حتى مع

الولد. والصعايدة والفلاحين الراجعين إلى المدينة وقد خففت الحياة قبضتها عليهم لفترة الرحلة القصيرة، ولكنها تركت آثار هذه القبضة القاسية على الوجوه الخشنة العميقة الأخاديد، على الذقون النامية الشائكة لم تحلق بعد، والثياب الرثة غير النظيفة تمامًا على أجسام مفتولة أو منحولة، لا تكاد تمت هذه الثياب إلى أجسام أصحابها بصلة، كأنها ملقاة عليها، غريبة، غير مستقرة، وغير متصلة بها. واحتدامات هذه الأجسام قد همدت لحظة، والهواء يدخل من الأفق الصحراوى المنتهى فى القطار، فيملكها ويعطيها معنى غير واضح.

خفتت سرعة القطار وتغايرت أنغام دقاته وهو يصطفق بالشبكات الحديدية من القضبان ويمر تحت علامات متباينة فى أعمدة السيمافور، والبيوت تجرى إلى جانبيه. وفى العربة نشاط فجائى والقفف تنزل من على الرفوف، والحقائب والملاحف والمراتب واللفائف المربوطة فى الخيش، والمرأة الريفية ترفع طفلها إلى كتفها فيستأنف صراخه وتطلب من الأفندى الرث المنهوك أن ينزل لها القفص والقفة يا فندى وحياة النبى، فينشط وهو ينزل

الأحمال الثقيلة ويترنح تحتها وهو يكاد يقع فيلتصق بالمرأة، عن غير عمد، فى مجهوده، ويطيب له هذا الالتصاق لحظة من زمن، والعسكرى يشد حزامه ويتنخم فى منديله الأحمر الباهت ويضع طربوشه على الطاقية الميرى العبك. والناس يقومون ويتزحزحون ويفتحون الشبابيك ويقفون استعدادًا للنزول وعلى شفاههم ابتسامات متعبة، ويلغطون مع بعضهم البعض فى شىء كأنه فرح طفلى بالوصول.

أخذ القطار يبطئ أخيرًا وهو يدخل المحطة المنيرة، ويصفر فجأة تحت السقوف الزجاجية المرتفعة فى دوى مظفر، ويقرقع ويصلصل وهو يقف فى فخامة، كجواد أصيل يرفع رأسه عند الوقوف، وتقاطرت جماعات الشيالين بأرديتهم الزرقاء وأحزمتهم الجلدية العريضة المتينة، يمدون أيديهم إلى النوافذ ويتلقفون رزقهم من القفف والشنط، وصغار الصبية خلفهم يتزاحمون على الأفندية والسيدات ويشدون حقائبهم: شيال، شيال، والناس يسرعون فى الأضواء اللامعة. وأصداء القطارات تتردد فى المحطة كأصوات تتنادى فى رنين مثير.

وهو ينزل إلى الرصيف ويستعيد مقدرة ساقيه على المشى بعد الخدر الطويل، ويجد أمامه من بعيد ركاب البولمان والدرجة الأولى فى أناقتهم الملونة وحقائبهم الجديدة الرشيقة يسرعون خارجين، وخلفهم يهرول الجمع المختلط من الإنسانية الصغرى المضطربة بين الأولاد الصاحين من نومهم يتعلقون بآبائهم وأقربائهم، وهو يحس المدينة خارج المحطة بشوارعها الهادئة الخالية تقريبًا، مستريحة آمنة، مضيافة.

اتخذ طريقه إلى سلم النفق الأرضى للخروج بعيدًا عن الزحمة على الباب الضيق، أو هكذا علل لنفسه سلوكه، وإن كان قد دار بذهنه، من بعيد، أن النفق لا يفضى إلى الباب، بل إلى رصيف آخر. لكنه لم يصغ الصوت الصغير البعيد.

ونشق على السلالم العريضة ريحًا باردة أرضية من النفق المنير الخالى، والبلاط الأبيض يلمع على حائطى السلم، مصقولاً ينزلق عليه النور كما ينزلق ماء خفيف رائق.. وهو إذ ينزل وحده على الدرجات العريضة يحس أنه يدخل على عالم آخر هادئ، تتجاوب به أصداء بعيدة

متطاولة فى الفراغ الأجوف، وتتراشق الجدران الملساء بهذه الأضواء ترسلها الواحدة منها إلى الأخرى إذ ترتد عن سطوحها الناعمة، عبر مسافات خاوية. وهو يحس سعادة غريبة توسع من صدره، لأنه وحده فى هذا العالم السفلى المضىء المحدد الجوانب، المنسرح تحت الأرض فى مستوى آخر.

وفجأة امتلأ عليه هذا العالم، فى فراغه. وأحس شيئًا وراءه، خطوة خفيفة مسترقة، نغمة، نفحة هواء، لا يدرى. ولكن هناك حضورًا يتربص به من خلفه، لا شك، شيئًا يرقبه، كأنه يرصده بعينيه الخفيتين، وينتظر حتى يوقع به، حتى يطبق عليه. وأحس قدميه تتجمدان تحته، ونظره ثابت موجه إلى الأمام، وهو لا يجرؤ على النظر إلى خلفه، بل لا يستطيع. ينزل السلالم ببطء، ويشعر بهذا الغريب يسوده من أعلى السلم، وراءه. وهو يريد أن يتحقق من هذا الذى يثقب ظهره ببصره، ولا يستطيع، بل لا يجد أدنى قوة على رد بصره إلى الخلف. والسلم خلفه خاو عريض مرتفع صاعد إلى أعلى، تنزل منه رياح الخوف. وهو موقن بأنه مراقب، بأنه واقع فى قبضة بصر ذى نوايا، ولا يستطيع أن يخرج من هذه الشبكة غير المرئية.

واستدار فجأة إذ وصل إلى أرض النفق، وداراه الحائط، ودخل فى النفق الطويل الممتد. وأحس أمنًا وروحًا، إذ أفلت من هذه العين الواقعة عليه، تنفذ إلى كيانه من الخلف، فى تصميم غرضها الذى لا يحيد.

والمصابيح الكهربية القوية تملأ الممر بنور ساطع على الأرض السوداء، والحيطان تقوم على جانبيه ببلاطها الأبيض الناعم، صقيلة لزجة، لا يلصق بها شىء.

وأخذ يحث خطاه، وقد استشعر حريته من هذه النية التى كانت تحدق به، وأحس انفساحًا أمامه فى النفق المنير الطويل الواسع الجنبات المنفتح عن سلالم جانبية متعاقبة كثيرة.

وأخذت عيناه بالقرب من نهاية النفق، تحت مصباح كهربى، شيئًا مختلطًا متلاصقًا، كائنًا فيه من البشر شىء، لولا أنه أكثر من كائن بشرى. تسقط عليه من المصباح حزمة مخروطة ساطعة من نور لا يرحم، وقد اختلطت فيه الأذرع بالأكتاف، تحيط ببعضها البعض، وضاعت فيها رأسان، فى امتزاج غامض المعالم، بين كتفين ملتصقتين، واختفت العيون فى حمى ظلام داخلى خاص مسدود على

نفسه، تحت عين مفتوحة من المصباح الكهربى المثبت فوقهما، ينصب منها نور صلب ثابت الحدقة، وقد جمدت الهدوم الرثة المضطربة، وسكن كل شىء، سكون مرعى من العشب الناعم الرقيق به هياكل ونصب عريقة، تعاقبت عليها عواطف حارة متربصة، وليال صافية من الوحشة، ولا نهاية من سماوات الظهر الخالية.

وقد أوقعه هذا الكائن فى فتنة لا زمن فيها، وهو يتجه إليه كالمأخوذ، كأنه يطيع مصيره فى هذا النفق الساطع تحت الأرض تتجاوب فيه أصداء ليست من العالم وإن كانت توحى بمعناه الخفى.

وترن خطواته فى فراغ النفق، وهذا الشىء الذى يلتصق بالحائط الأبيض اللزج يتحدد وتتضح معالمه.

ولكنه لم يستطع أن يحول بصره عنهما، هذه الطفلة وشيال نحيل ضئيل عنيد الوجه، وما زالت بيدها المرمية على ظهره أوراق يانصيب قديمة يجمعها مشبك حديدى صدئ، وثيابها السوداء الباهتة الخلقة تتجمع فى طيات مضطربة تحجرت كأنها من تمثال أثرى قديم مصقول الحجر، يقف فى نشوة غائبة. ويدها مرمية بلا حياة على

قميصه الكاكى المشعث القديم، على ظهر جاف انحنت عظامه كأنما نضب منه ماء الحياة، يتحدى الجفاف فى تضحية حانية. وهما يلتصقان ببلاط الجدار الأبيض، كأنهما علقتان جافتان لاتصلان أبدًا إلى الدم الذى تبحثان عنه. ولا شىء يعنيهما، فكأنه لم يمر بهما، والرءوس مختلطة المعالم، مدفونة فى رائحة الشعر الملبد الكثيف بين قماش الهدوم القديمة المتراكبة الرقع فى جمود منسى، لا يهتم بأحد ولا يعنى به أحد، ويسطع عليه نور وحشى,لا إدراك فيه.

وارتقى درجات السلم إلى رصيف المحطة، وفى جوفه فراغ متداعى الجنبات، والأرصفة خاوية تمتد بينها القضبان آتية من أبعاد سحيقة، فى خطوطها الرفيعة المتجاورة المتشابكة، بين تيه من الأعمدة والإشارات. والقطارات فى الباحة تحت سماء الليل الباهت، ساكتة صامتة مظلمة، كحشرات ميتة بيضاء مغبرة البياض منسية، والقطارات ملتصقة بالأرصفة، عليها تراب الليل، تحت السقف الزجاجى المسود من الهباب، والمحطة كلها ساكتة نائمة، وقد هدأت فيها الحركة هدوءًا غريبًا، ساعاتها تحدق إليه بعقاربها التى توقفت، والأسوار

الحديدية القصيرة تحيط به، وصوت حشرة ليلية يتردد صغيرًا من أحواض الزهر الغامضة فى الليل، تحت السور الحجرى القديم، وجرس الترام يرن بعيدًا من شارع المحطة فى الخارج، كأنه يسير وحده بلا ركاب فى شوارع مدينة أقفرت من كل ساكنيها.

وأحس نفسه محبوسًا، مخنوقًا، مضيقًا عليه.

يجب أن يفلت إذن، يجب أن يخرج، يجب أن ينطلق من بين هذه القضبان، يجب أن ينتزع نفسه من تحت هذا السقف الزجاجى، ومن نظرات هذه الساعات الواقفة، يجب أن يخلص نفسه، أن يخرج من الباب.

واندفع يجرى بالرغم منه، لا يملك نفسه، صغيرًا فى هذا الفراغ الليلى، نحو باب الرصيف.

وجابهه على الباب الصغير ثلاثة، أربعة، خمسة، من عمال المحطة جالسين ينظرون إليه فى هدوء متربص، يسدون عليه المخرج ينتظرون منه تذكرة السفر. فلن يخرج إلا ومعه التذكرة.

وهبط قلبه فى حفرة لا قرار لها، وقد تيقن دفعة واحدة أن ليس لديه هذه التذكرة. لن يخرج إذن، لن يستطيع

الخلاص. فليس لديه تذكرة. وهذه الوجوه الخشنة الغليظة القريبة تحدق إليه بعيونها المدورة الجاحظة، وغضونها الجافة السمراء، وكلهم لم يحلقوا ذقونهم هذه الشائكة. هذه الوجوه لا يهمها من هو، ولا تعرفه ولا يعنيها شيء إلا أن تنال التذكرة. وحللهم الرسمية السوداء - ولعلها زرقاء قاتمة - تصطف عليها أزرار نحاسية كابية، كأنها صفوف أخرى من العيون المعدنية تنظر إليه، وتنتظر.

وقفل راجعا يجري، يجري كأن حياته كلها فى خطر، كل لحظة يقضيها الآن فى المحطة تزيد من هول جريمته، تثبت ادانته، وتقرب لحظة الحكم عليه، لن يغتفر له، لن يغتفر له إن ليس لديه تذكرة. يجب أن يهرب، يجب أن يفلت، الآن.

وهو يجري كما لم يجر أبدا فى حياته، والمحطة واسعة فسيحة خاوية، ليس فيها شيء عداه، يحاول الافلات بنفسه، والأرصفة تمتد تحت قدميه. كأنها تتخلق وتتمدد خاصة له، كأنها طريق لم يوجد إلا لأنه يجر عليه: بل هى توجد من لحظة إلى لحظة، تحت قدميه. وفى كل اتجاه يندفع إليه يجد نفسه على نفس الرصيف الضيق، ونفس

القضبان تحت الرصيف، ونفس الأرصفة الأخرى تحاذيه، أينما اتجه، تتمدد حواليه. وإذ يقترب من باب الدرجة الأولى، وقد بدا له من بعيد خاليا، يجد أمامه نفس الوجوه، نفس العيون تحدق إليه، تنتظره، فى غير اهتمام كبير، ولكن فى تصميم، لن يخرج أبدا إلا إذا قدم التذكرة، أبدا وليس معه تذكرة.

وهذه الحمى من الجرى لا تنتهى، وقدماه المندفعتان أبدا إلى الأمام، تحملانه مرة أخرى إلى رصيف الدرجة الأولى، وهو يتعثر، ولكنه يطير فى جريه، كأن هذا الحجر الذى يكاد يتعثر به قد تطاير تحت قدميه فجأة، ولم يعد فيه عائق ما، كأنه قد اخترقه دون عناء. ويصل أخيرا ينهج، ويمسك بالسور الحديدى القصير، وعيناه معلقتان بتلك الوجوه على الباب، ويتعلق بحاجزه الرقيق المهتز، يتعلق به كأنه لن يفلته قط، فى عنف واصرار، ويداه قد تشبثتا بالحديد الهزيل، واندمجتا فيه، وأصبحتا قطعة منه لا تنفصل عنه. وهو يحدق إلى ساحة المحطة الخارجية، لكنه لن يستطيع أن يتجاوز هذا السور، وهذه الوجوه قد اتجهت إليه، صامتة فاهمة تنظر إليه من غضونها الخشنة، بذقون غير حليقة كامدة الزرقة، شائكة.

وأحس القطار يصفر وقد وصل من رحلة بعيدة، والأنوار فرحة بهيجة قد غمرت المحطة كلها، والساعات تدور، والناس يتدافعون ويتزاحمون فى انفعال الوصول. وهو يتعلق بيد أمه ينزل من القطار فى زحمة الناس. ويرفع إليها وجهه وقد تعب من رحلته، وهاجه وأسعده انتهاؤها. وأبنية المحطة الكبيرة عالية تتجاوب بطنين الكلام والضحكات وصفير القطار وقلقلة العجلات، ويسمع صيحات الشيالين وجريهم بين الناس فى الزحمة، وأبواق التاكسيات تملأ الساحة الخارجية الفسيحة بلجاجة ندائها، والحناطير تتقارب وتتزاحم وتقطع الطريق أمام بعضها البعض، والساحة الممتلئة بالناس الخارجين تسبح فى الضوء الباهر المريح بعد شحوب القطار.

وتلفت خلفه فجأة، وقد تقبض حلقه من المفاجأة، والخوف. لقد ضاع، تاه، وهو لا يجد أمه إلى جانبه لقد فقدها فى الزحمة. والناس يخرجون متتابعين، سيل لا ينقطع من الناس الغرباء. وهو وحيد صغير، لا يعرف الطريق إلى البيت، لا يعرف الشارع، لن يصل أبدا إلى البيت. لن يجد أمه ولا أخواته.

ورجع جاريا يتخبط فى سيقان الناس المندفعين إلى الخارج، ويتفلت من بينهم. وقد أخرسته المفاجأة ولم يستطع أن يصرخ. وهو يريد أن ينادى. أن يزعق. ان يجده أحد. أن يجد أحدا. لكن أحدا لا يصغى إليه. أحد لا يعرفه. وهو لا يعرف أحدا. وقد ضاعت منه أمه. فقدها. ولن يعرف الطريق أبدًا. سيتوه إلى الأبد فى هذه المدينة الرهيبة الغامضة التى توجد خارج المحطة. سيتوه بين الترام والعربات والسيارات والناس. ستتخبط به الشوارع الطويلة المخيفة التى لا يعرف أسماءها. ستتوالى عليه جدران البيوت. كلها غريبة. كلها صامتة. كلها مجهولة. ولن يعرف بيته أبدًا.

وكم هو ضئيل فى زحمة كل هؤلاء الناس. صغير. تائه.

وأحس العرق السخن يغطى وجهه، ويد الخوف تمتد إلى داخل صدره وتقبض على قلبه، والضياع يحدق بنفسه الطفلة. وقد فقد كل شىء

وهو يجرى متخبطًا بالناس لا يرى شيئًا من خلال الدموع السخنة التى تملأ عينيه. وهو لا يعرف إن كان يصرخ فعلاً فإنه لا يسمع شيئًا. لكنه يحس نفسه يصرخ

منادياً أمه. ويضيع صوته فى دبدبة الأرجل التى لا تنتهى، متتابعة خارجة من المحطة، ليس بينها أحد يتعرف عليه. يحس نفسه يصرخ بملء روحه المتطلبة حبها المفقود، يدعو يداً تمتد إليه بالأمن والألفة يصرخ منادياً من وحشة الضياع المقفر الذى يحيط به فى امتدادات معتمة لا آخر لها. وينهج من الجرى والرهبة والبحث عن الخلاص. يصرخ ولا يعرف هل يسمع صرخته أحد، بين كل هؤلاء الناس. يجرى فى وحشة الضياع. لا يفتأ ينادى.

(٢)

كانت دقات القطار الرتيبة قد أتخمت نفسه. كل شئ قد انحصر الآن فى هذه العربة التى تهدر وتهتز. أمواج ضجيج القطار الآلية تصطدم وتتقلب فى ايقاع رتيب محسوب تحكمه قوة غير عقلية. دفقات من كتل الصوت الصلبة ترتطم بأجسام الصخور الناعمة الرملية. والعربة المكتظة بالناس محصورة بين ضربات الحديد المتشابكة تعجنها وتغوص فى لحمها وتدفعها دون أن تهن، فى هديد الصدمات المتقاطعة المتراوحة، أبدا إلى الامام.

تململ فى الزحمة، وضغط براحة يده المبسوطة على زجاج النافذة المغسول بماء أثار تراب جاف وذرات رمل

بيضاء مغبرة فى الأركان. وقاومه الزجاج، لاينزلق فى مجراه الخشن الصدىء، ثم أفلت منه فجأة ينزل، ووقع، سكين مثلومة تهوى إلى قاع قلبه فى خبطة مكتومة. واندفع الهواء الحار. وصفا سطح السماء المعدنية التى تطبق على الأفق، ودار القطار أمامه فى انحناءة ضيقة، جلجلة عجلاته ثرثرة دؤوب مختلطة الحوار، مصممة، لا تتقطع، فى الصمت الخارجى، على قضبان هشة رقيقة ممدودة كالاسلاك، فوق الجسر المرتفع. أثر جرح متورم على خد الصحراء الجاف.

استدار، يتعثر فى السبت المملوء المقبب المغطى بملاءة سرير غير نظيفة مربوطة بحبل غسيل مشعث، وخوص السبت يحز فى ساقيه اللتين لا تستقيمان من ضيق المكان. وعندما أسقط جسمه، محشورا، ليجلس، كان جاره قد استراح قليلا فى جلسته، وأتاح لعظامه العجوز أن تتفرد قليلا تحت جلبابه الابيض الفضفاض الذى يسف طرفه تراب أرضية العربة، فلم يكد يستطيع أن ينزلق على الواح خشب مقعده حتى أوشكت كتفه أن تحتك بالوجه العظمى الشيخ الذى تهدل جلده فى طيات مستسلمة، ولكن عنيدة، وصلبة.

- خـد راحـتك يابنى. لامـؤاخـذة أدى انت شـايف، نستحمل بعض ساعة زمن.

كانت العينان الترابيتان المحفورتان مثبتتين عليه، ابرتين طويلتـين، مـغـروزتين فى عـريه النيىء الخـام، تأتى من ورائهمـا عينان أخريان، كأنهمـا هما مـرة أخـرى من وجه حفيد الشيخ الـذى يلتصق به، فى كره، على خشب المقعد، هو حفيده بلاشك: خطوط الوجه نفسها، فجة، بريئة، لم تقع عليها بعد صدمات تلين من بدائيتها الأولية أو تقسيها، ولكن هاتين العينين فيهما رفض، لا مبالاة، أو استهتار. والولد قد استخت فانلته المقورة القصيرة الكمين، وأمسك بحذائه، من غير شراب، فى يده، ووضع رجليه الهزيلتين، احداهما تحت الأخرى، على خشب المقعد، قائمتى طائر «أيبيس» مرميتين بعيدا عن الماء، فى لباسه الطويل البفتة الذى يصل إلى الركـبـتـين. هذه مـلابس الرياضـة فى مدرسته، وزينته فى السفر والفسحة والعيد والمناسبات؟

أحس العرق الخفيف على وجهه يسفعه هواء الغروب الذى يهبط من السماء على الصحراء الخالية.

فى صدره الحجر المشع الساطع، نجمه الصلب الشفاف، يقطع الظلمة فى داخله بألف سكين باردة كالبلسم. فى بؤرته المتقدة مركز ثقل الكون، سر التوازن والعقل. حوله مدار الحلقة المتوهجة التى تغنى فيها موسيقى فلكية.

ووحل ذهنه فى حسابات الحفلة، دون أن ينتبه لتغير مراكز الثقل فى وعيه، واجراءات العقد، ومصاريف علب الملبس،. وارسال آخر بطاقات الدعوة، وترتيبات العشاء والسهرة.

ويدها الرخصة السمراء الطويلة الأصابع عصفور وديع، ودقيق، وسخن، يحس رجفات نبضه بالخوف، يكاد يكون عاريا، فى يده.

الصبح استلم الدبلتين الذهب من الجواهرجى، وبارك له الرجل بابتسامة زيتية غائبة.

كان منقوشا عليهما التاريخ. غدا يبدأ دوران الكون بعد جمود وقفة لا تاريخ لها.

من على البعد مراوح الآبار تدور على أبراجها المخروطية العالية الرقيقة الاسلاك، تشق لنفسها دوائر

فى الزرقة الصدئة. وتحتها بيوت من حجر أبيض مكسورة الجدران، وخيام الاعراب الواطئة مطبقة على الارض، قاتمة بقذارة عتيقة، ممزقة مرتوقة بألف رتق، وشجيرات التين القميئة الناصلة الترابية تتناثر فى أرض صفراء كابية مضلعة بأحجار غير منتظمة ورمل متصلب.

وعندما استدار القطار من جديد، تشبث ثلاثة أو أربعة جنود، ينامون على أرفف العفش العلوية، بالحافة الخشبية، بحركة غير مقصودة فى نومهم، اسندوا رؤوسهم الحليقة إلى أيديهم المكومة، وأحذيتهم السوداء الضخمة، عليها طبقة رمل باهتة، تكاد تصطدم بسقف العربة، بين القفف والحقائب واللفف والصرر والسلال. المصابيح فى السقف عيون حافظة، زرقاء متورمة منطفئة، تسيل نورها الشحيح على النباتات الانسانية المصوحة، تحت جفاف الرمل الكابى، فى حبس مشتل ساخن معدنى يصطفق بدق مثابر عنيد.

ارتفع، فوق ضجة العجلات التى لاتهدأ، صراخ طفل، محرق لاينقطع، من المقعد المواجه، والمرأة لاتنى تردد بصوت آلى، متعب، كأنها لاتلقى بالا لما تقول ولا تعلق عليه

أملا ولا تنتظر نتيجة: طب بس ياواد اسكت بقى طب بس ياواد اسكت بقى، بملابسها السوداء الضافية، النازلة حتى حذائها الرجالى، وشعرها المغسول الاسود تحت المدورة الزرقاء، ووجهها النحيل الصافى، وهى تنظر اليه، تقيسه وتزنه وتبلو معدنه، برغبة حادة مباشرة، بلا استعطاف ولا غواية، فى داخل خرافة خاصة بها لا تحقيق لها.

ومازال الافندى أبو جاكتة وجلابية، حتى فى نور المغرب المتهافت الخابى، يحسب ويضرب ويجمع ويطرح، فى مذكرته الصغيرة، ويبل طرف القلم الكوبيا بلسانه، بحركة محتاطة تكاد تكون مرفهة متشامخة، ويتمتم بأرقام محدودة العدد ولكن لانهاية لها فيما يبدو، لاشأن له بأحد ولا بشىء فى كابوسه الضيق الخاص المحسوب.

والست المترهلة اللحم، أم فستان مشجر وطرحة مقموطة على جبهتها المدورة العرقانة، تمص حبوب اليوسفندى بشفتين مطبقتين شرهتين، وتلقى بالقشرة إلى الأرض وعلى اللفف والسلال، وتقذف بالبذور من فمها الباهت المسدود، فيقع متناثرا على ملابس الناس وأرجلهم وعلى الشنط والمراتب المدورة المحزومة بالحبال والدوبارة.

من ورائه وإلى جانبيه وحواليه الوجوه التى خدرتها ضجة السفر، والعيون المطاردة الهاربة إلى كهوف محاجرها، والافواه الفاغرة تتثاءب بلا خجل وتنطبق، والعظام الحادة المرهفة المفاصل، واللحم المنكفىء على طياته تحت الجلاليب والعمم والشيلان والطواقى والقمصان الامريكانى المخططة والملونة والبنطلونات الرمادى والكاكى المتهدلة ورائحة الحصار والرمال الجافة ووحشة مغيب الشمس. وهو غارق فى هذا الموج منهم، ليس طحلبا بل جذوره ضارية فى صخرهم، لا انتزاع لها.

هى ساعة زمن ونصل. أبدا، مازال أمامنا سفر لا ينتهى.

عندما أفلتت عيناه من أسر العربة التى تغص بحياتها الكثيفة المتخثرة كان القطار قد دخل إلى حيث دفنت الشمس نفسها وراء امتدادات الملح الجاف الفضى، والقضبان أمامه تشق الفراغ: خيطين معدنيين على صفحة مياه قليلة الغور، بها أمواج صغيرة متلاحقة هى رصاص بارد ذائب يترقرق الهواء قليلا فى قوامه الثقيل. وينبسط الماء. بعيدا إلى الجانبين، تحت عجلات العربات الحديدية

المندفعة فى صخبها المصمت المتلاطم يدق نفسه بلا هوادة. أحراش البوص الكثيفة تغوص شيئا فشيئا فى الطين القريب تحت طبقة الماء المعدنى الراكد المتعفن، وتهب عليه الرائحة.

رائحة التحلل النباتى العتيق الزخم، عضوية، فاسدة، عطنة، حمت بها أنفاسه، ترفضها وتتشقها رغما عنك، تأتى من تحت جلد الطحلب الأخضر المجعد، جلد امرأة عجوز متصابية، مدهون بزيت زنخ، تلبدت طياته فوق سيولة الماء القليلة تنكسر طبقته هنا، هنا، وهناك، فيلوح تحتها الماء الساكن والطين الرخراخ، ثم تتجمع، تحت جدار العربة المنطلقة، فى دغلات ملتفة شرسة ضاغطة من الخضرة القاتمة الزلقة الملمس. والرائحة تعنف به، وتفوح فى سطوع عفنها الذى لايطاق، من تحت عجينة الطين المشبعة بنضح الدسم، من تحلل المخلفات العضوية، طوال أزمان سحيقة. تضرب فيها الشمس ويتخللها الماء وينصب فيها لحم النبات الأخضر يموت على مهل فى قبوره المائية المفتوحة، وتتراكم جثثه الفاسدة واحدة فوق الأخرى وتتكدس، مكشوفة بذيئة، تنفث عطنها الكثيف بلا نهاية، من تحت مرآة مائية مغضنة الأسارير تعكس صخر السماء البرونزية.

- يوه.. ما تقفلوا الشباك ده ياخواتى!

هذه المرأة الأم كأنها قطة بعينيها الحادتين اللتين تعرفان ألا وفاء لشهوتها أبدا، ألا اخاء لابنها قط.

وضحك الشيخ عن فم ككهف لحمى قاتم الحمرة، وهو يهز ذراعه الضاوية فى الكم الأبيض الفضفاض.

- معها حج يابنى.. يالطيف!

ووقف مرة أخرى، يقبض على الحافة الخشبية السوداء من دسامة قديمة جفت وتصلبت وتركتها أيد كثيرة ناضحة فى شهوة القبض والتصرف، ويجهد أن يرفع زجاج النافذة من مخبئه فيستعصى عليه، أمكلف هو برعاية الفتحة التى ينصب منها العالم الشرس على سكان هذه العربة؟ من كلفه؟ ولماذا؟

ومن وراء الزجاج المسدود بدا له ظل القطار بعرياته القليلة، وقد أضاءت مصابيحه الزرقاء، ينعكس غائرا، مهتز الانوار، فى عمق المياه التى لم يعد لها فى العتمة غور مستبين، وقوارب الصيادين الرفيعة المستدقة الاطراف، مهجورة، بالية، خشبها مفكك عارى الألياف، مائلة وراقدة على الطين القريب بين رقرقة طبقة الماء النحيلة المتخثرة

بالفساد. وفى آخر مجد نور المغيب أخذت تتوالى، تحت عينيه المجهدتين، نبتات ورد النيل الخضراء اليانعة، تحت القضبان الحديدية، وسط موجة واحدة رحراح من المياه الممتدة. والنبتات الكثة تلمع غضة، زيتية، ملفوفة، ساطعة بنور دسم مشع كثيف، وحشية بصمت، تستمد حياتها الضارية من العفن المتخثر. كانت العربة مغلقة على زرقة أنوارها المتهافتة، والمساء يزحف من الخارج، نمرا بلا صوت، فى رائحته بقية عطن متراخ مستريح.

عيناها السوداوان بئر ماء حلوة بلا قرار، لا يعرف سرها. ترتفعان إليه من ضجيج دقات الآلات الكاتبة ورنين التليفونات وصخب المكاتب الملهوف السريع وحفيف الأقدام والأوراق فى ممرات الشركة ومسالكها المفتوحة ومنصاتها الرخامية اللامعة وحواجزها الزجاجية، بينما هو فى صحرائه الفسيحة المغلقة عليه، شعرها جدائل نخلة سامقة ناحلة الرشاقة ناعمة الجذع، وفى صدره الماسة الباردة تومض بنارها المحبوسة داخلها، أبدا، الحجر الرقيق يسطع باستمرار فى نواة ليله. غدا لن تنطفىء شمس الماسة.

ومرة أخرى عاد إلى الجلوس فى مقعده الذى زحمه الشيخ، وقد اتجهت عيناه بصمت جامد إلى المرأة أمامه، وصراخ ابنها يأتى، محرقا مايزال، يملأ ضجيج العربة، ولكن مكتوما، صادرا من بين جدران جلدية مبطنة، يحس اهتزازها فى داخله.

وتجمد فى جلسته، لحظة ليست من الزمن، وثبتت عيناه إلى ساقى الولد الناحلتين فى فم يمضغ رغيف ذرة مبلولا، القدمان الصغيرتان بما عليهما من تراب الطريق، تغيبان، وتنطويان، ويدها تمتد إليه من جديد، والصرخة نفسها مازالت محبوسة، والرأس الصغير ينطوى ويغيب فى الظلام، لقمة وراء لقمة. للعيش المرحرح المبلول صوت تكسر عظام الجمجمة والضلوع، تنطبق عليها شفتان جافتان جائعتان، وقد انحسر ثوبها الاسود عن فخذ سمراء ممصوصة، فاجرة، تبدو للعينين كأنها سخنة الملمس، فى رقة عظمها الحادة، لا ينطفىء جوعها، ومازالت تكرر فى صوت آلى لا أمل فيه: طب بس ياواد، اسكت بقى، طب بس، والولد عيناه لاتفهمان، والوجبة البذيئة لا تفرغ، مازال الولد على فخذها العريانة يصرخ صرخته المحرقة المتجددة، فى طبقة واحدة لا تتغير،

منهوشا ممضوغا بأسنان حانية، لا مبالية فى حنانها، بينما البقال، أو لعله القومسيونجى، يحط حساباته المتصلة فى النوتة الصغيرة، ويتمتم، بشفتين متحركتين لاتتوقفان. بأرقام لا آخر لها، والست المليئة أم طرحة مقموطة قد غاصت عيناها الصغيرتان فى عجين وجهها الباهت المتخمر وانطبقت شفتاها فى خط رفيع مصمم وإن كان لا أسنان وراءه.

مد يده فى حركة كأنما تند على الرغم منه، كأنما يهم بأن يوقف هذا الذى يدور أمامه أو أن يشارك فى اقترافه، ولا يباليه احد : طحن هذه الوجبة الداعرة الحنون، والمحرمة والمحتومة مع ذلك. ولم تمتد يده، ولم يتوقف شىء.

الناس يتململون فى حركة الاستعداد للوصول، ويقف البعض ويشقون طريقهم بصعوبة فى العربة التى تغمرها العتمة العكرة بنور مزرق شاحب، وتثقلها رواسب الليل القادم. والجنود ينزلون من على أرفف العفش فتغوص الأحذية السوداء الضخمة وسط لحم القفف وعظام الشنط الهشة اليابسة، وترتفع قاماتهم الكاكى الطويلة

الناحلة، فى الزحمة المضطرية العتمة، حتى السقف. والعربة مندفعة إلى الامام فى دقاتها الحديدية التى أخذت ايقاعا آخر، أبطأ، وهى ترتطم بمياه الليل الساجية الثابتة القوام.

ومن وراء الزجاج تعاقبت أحراش البوص الأخيرة، الداكنة الزرقة، ومرتفعات الرمل فى وسط الماء عليها عربات نقل بعيدة مقلوبة، وبيوت صغيرة من حجر أبيض مظلم، ثم اختفت رقرقة الأمواج، وانفسحت الأرض، وارتفع جسر رملى عليه حرس الاشجار التى ترقب القطار يمر بينها بألف عين مهتزة الاهداف وألف ذراع متهاوية متأرجحة، وجاءت أعمدة السيمافور العالية المسحوبة المتتالية، تصطك ذراعها الواحدة الصلبة لتسمح للقطار بالمرور، وتبرق عينها الكهربائية الواحدة بلونها الاخضر، وتتشابك القضبان الحديدية وتتعرج، وتتشعب، وفى العربة جو فرح وقلق، بانفكاك الحصار وانقطاع علاقة اضطرارية، والأم ترفع ابنها إلى كتفها وترفع السبت بيدها الأخرى، والجد يقيم عظامه القوية العجوز وحفيده يلبس حذاءه من غير شراب ويتسلل فى لدونة وراء جده، والبقال - أو القومسيونجى - يتشهد ويضع مذكرته فى جيب

جاكته الداخلى، أما هو فقد أنزل حقيبة شركة الطيران القماشية الصغيرة وعليها الحروف اللاتينية البيضاء، ووقف فى الزحمة ينتظر، وأنوار المحطة تتخايل لهم ثم تهجم عليهم. وإذا بهم فى وسط الدقات المحتضرة العذبة الأخيرة والقطار يصفر، مستنفدا، تحت السقف الزجاجى العالى، وتتردد أصداء الوصول فى المحطة الفسيحة الصدر.

الطريق غامض أمامه، ولكنه مفتوح.

عندما نزل من العربة كان سيل المسافرين قد انحسر وتشربته البلد، ووجد نفسه على الرصيف الخارجى، تحت سماء الليل. والقطار قد وقف، وغاضت منه حيويته وانطلاقته، انكمش وجف، قشرة مفرغة هناك، تحت السقف الزجاجى تهب عليه أنفاس الليل، والأرصفة المتوازية، فى خلاء المحطة المبهم، متعاقبة واحدًا بعد الآخر، تنتهى بانحدارات مائلة نحو الزلط والحصى والرمل وبرك السولار السوداء اللامعة الخبيثة، وعلى القضبان، بين الأرصفة، عربات نقل البضائع الحديدية الفارغة، مسطحة مكشوفة، ملقية بأذرعتها وأطرافها الناحلة

الاسطوانية إلى الأرض، وتحت الانوار الخافتة كشك بيع الصحف مسدود مغلق يغطيه نصف اعلان سينما قديم مقطوع، وبوفيه المحطة بعيد جدا فى أول الرصيف عند باب الخروج، معزول، يسقط فيه نور أصفر باهت على مقاعد وموائد مصفوفة بانتظام، خاوية تماما، عقيمة. ومكاتب المعاون والناظر والبوليس والتليفون، بأبوابها المتجاورة المفتوحة، كلها عيون معتمة، على زجاجها قضبان معدنية متقاطعة قائمة من بعيد. وقد جلس أمامها فى نصف العتمة، عسكرى ضخم منتفخ فى بدلته الصفراء وأشرطته العريضة الداكنة الحمرة على كمه. أسند بندقيته على الكرسى، وأدخل ذراعه تحت حمالتها، محنيا رأسه على صدره الذى يهبط ويرتفع بثقل.

الطريق مفتوح. ينزل من آخر الرصيف إلى أرض فناء المحطة، ويعبر القضبان إلى اليسار، ويمر بين أحواض الزروع والأزهار والشجيرات المدورة تحت السور الحجرى الأبيض، فإذا نفذ من كسر فى السور خرج مباشرة إلى الشارع الطويل المهجور الهادئ، بجانب المحطة. دقيقتين ويكون فى شارع الرصافة ومنه إلى البيت، بدلا من اللفة الطويلة من باب الخروج. دقيقتين ويخلص.

وارتفعت يده إلى جيبه الداخلى إلى جانب صدره، ثم توقفت لحظة، وقد سطع الرعب فى نفسه، وأنار العالم كله بنور وحشى خاطف، ثم انطفأ فجأة.

تجمد فى وقفته على آخر الرصيف، ووضع الحقيبة على الأرض، وامتدت يداه فى حركة سريعة تبحثان فى جيوبه جميعًا، بلهفة، وقد بدأ الجنون يزحف ويستأثر، لايرد، بيقين خفى لايريد أن يعترف به، بيأس كامل ومنكور. لن يجده. يعرف. ضاع. لا. لا.. فى الحقيبة؟ كيف يمكن أن يكون فيها؟ لا.. وانحنى، مع ذلك، وقد غمر وجهه وصدره عرق بارد، عيناه نافذتان معتمتان من الصدمة، والخوف، ومضض القلق الذى لا شفاء منه، ويده تجوس فى الحقيبة. لاشىء.. لاشىء. البيجاما، عدة الحلاقة، معجون الأسنان، الفوطة، الفرشة، الشبشب، غيار. الكتاب. هذا كل شىء. ولكن الخاتم. الخاتم. فقده. ضاع منه. فقد.

كانت قضبان السكة الحديد تمتد، بين الأرصفة، وتخرج إلى الفناء الخارجى، متشابكة، متجاورة، متقاطعة، لامعة فى عتمة الليل بلمعة رصاصية فتية، غضة وقاسية، مدورة

فى صلابتها، اكتسبت قوة مصقولة مشحونة بطاقة كامنة من اقتران العجلات الضخمة معها، ودورانها عليها، وازدواجها بها، والخطوط الحديدية الملتصقة بالارض، الذاهبة على وجهها إلى أبعاد سحيقة تخرج بها من الزمن أيضا، تشتبك بتراب الارض وتدفن نفسها فيه، فى عناق أخطبوطى محكم لا افلات من قبضة حبه.

لا، يجب أن يجده، لابد أن يعثر عليه. بذرة حياته نفسها فى قلب الحجر الشفاف المشع، من غيرها ثقب فى قلبه لايمتلىء أبدا، وفقد لا عوض له.

وانطلق يجرى، مندفعا فى ثورة من العمى الباهر، لعله مازال هناك، وقع منه عندما قام يفتح الشباك، أو يغلقه، انحشر بين المقعد وحائط العربة، لعل العجوز وجده وأخفاه، أو المرأة سرقته، أو داس عليه الجنود وهشمته الأحذية السوداء الثقيلة، أحالته فتاتا من تراب أبيض كالملح الخشن الجارح الزوايا، على أرض العربة، بين قشر اليوسفندى ومصاصة القصب. لا، لا، مازال هناك، أخطأته العيون والأيدى والأحذية، مازالت صخرته الدقيقة تشع فى العتمة بوهجها البرىء النقى النقى، تنير الكون كله

من مكمنها، غير مرئية، بين الحديد والخشب الأسود الكابى وعليه أن يجرى، الآن، قبل أن يفوت الأوان، يلحق بالقطار قبل أن يرجع للمخزن أو يعود إلى محطة القيام. وهو ينهج، إذ يقطع المحطة الليلية الخالية، وقدماه تطيران به مع دقات قلبه الشرسة التى تمسك دقات قلبه الشرسة التى تمسك بكيانه، تعجنه وتهرسه بضربات مطارق حديدية متشابكة. واندفع يعبر القضبان، ويطير الحصى الدقيق والزلط الأبيض تحت قدميه، ويثب فوق البرك الصغيرة السوداء، بها حلقات وموجات زيتية قاتمة الاخضرار، من الشحم والزفت المترسب بين القضبان وتحتها. وها هو ذا يجرى إلى جوار قطار طويل، طويل، لا ينتهى، عرباته فارغة. موحشة، متعاقبة، جدرانه هامدة، شاحبة. بناء منيع يوشك أن ينهدم فى أية لحظة، ولكنه متماسك لا ثغرة فيه، لاينال، ولا ينتهى، ليس هذا قطاره، يريد أن يدور حوله، ولايصل إلى نهايته، يريد أن يبلغ قطاره الذى غادره منذ لحظة واحدة، كأنها حدثت مع ذلك فى عالم آخر انطوى تاريخه منذ أمد سحيق، ولكن القطارات كلها قد اشتبهت عليه، بصمتها، وتماثلها، واتصالها الذى لا ينقطع، لا مبالية.

دار أخيرا حول آخر عربة من قطار واحد مشتبك العربات، ووثب يصعد الرصيف فى اندفاعة لا جهد فيها، وخارقة، وقلبه يملأ المحطة النائمة كلها بضربات عناد لاينهزم، وانحدر مرة اخرى، كأنما تحمله أيد خفية، يعبر آخر القضبان إلى قطاره فى الرصيف التالى، هناك، أمام عينيه، فى متناول يديه، وقد انشعبت فى عينيه بروق متلاحقة فى لهفة حارة. مازال قطاره واقفا حيث كان، لحظة واحدة الآن، لحظة واحدة ويندفع إلى عربته، ويجد حجر خلاصه، وصخرة نوره.

اصطدمت قدماه وساقاه، فى شبه العتمة، تحت سماء الليل، بشىء طرى طيع، على القضبان. وتعثر، ووقع إلى الأمام دفعة واحدة.

وجد نفسه راقدا على الأرض، على وجهه، منكفئا على القضبان الحديدية الطويلة، ذراعاه ممدودتان أمامه على الزلط والحصى وحبات الرمل الكبيرة، ينشق رائحتها الترابية الخشنة، ويحس لذع كشط حاد فى جانب وجهه الأيمن، وتحت ذقنه، أطراف أصابعه مكدومة، وقد أذهلته السقطة المفاجئة وشلت وعيه، لم يعد يحس إلا العرق الملح

يتقطر على عينيه وقد تضخمت أمامهما أحجار الزلط الصلبة الباهتة المعوجة القوام، كأنه لايدرى بعد ماذا حدث. وعندما عاد إليه الوعى، بعد خطفة زمن لاتكاد يحسب لها حساب، وجد نفسه فى هذا العالم السفلى، بين حائطين شاهقين من أرصفة المحطة، على جانبيه، وهو فى النفق المفتوح بينهما، كل شىء حاد، وقاطع وشديد الوضوح، ولكنه لم يعرفه من قبل قط. كانت القضبان تحت عينيه، قوية ويانعة الرسوخ فى ضلعها الواحد المستدير الممتد إلى مالانهاية، والزلط محبب، مدور، مكسر الحواف، وحبات الرمل خشنة نائتة كالحجر المصحون. لكن وجهه - مع ذلك - مدفون فى طيات شىء كاللحم البارد الرخص، مألوف وحميم وبشع يهز قلبه بقشعريرة مثلوجة، لايراه، وراحتا يديه تقعان على عضلات جسم مبتورة ومكتنزة كأنها تنبض، فى برودة ممتصة، وتصد الحس تلصق به وتشله وتميته.

انبثقت فى جسمه كله، من الرعب، شرارة كهربية واحدة خاطفة، ووجد نفسه واقفا، ومس الصعقة الكهربية المتوتر مازالت أصداؤه تتردد فى أطرافه كلها. وقد وثب إلى الخلف، يحدق إلى فراغ الأرض، والقضبان الصامتة

المصقولة النظيفة، والأرصفة، تبدو له كلها متينة، عملية، راسية.

لم يصدق. كان وحده فى المحطة الفارغة، تحت خواء سماء صدئة، وأعمدة السيمافور منطفئة لاتشير إلى شىء، والسقف الزجاجى الدافىء بعيد.

حس الاشلاء المبتورة المرمية على القضبان مازال فى وجهه ويديه، حس اللحم الانسانى المحظور والمحبوب معا، البارد، عضلات بطون وأطراف سيقان مدورة وأذرع بضة متشابكة، باردة، باردة، هامدة، لكن فيها مع ذلك روع لايخطئه القلب أبدا، روع التلاصق بأجساد ميتة، بأجساد المحارم الميتة.

لم يحدث. لم يحدث شىء من هذا كله. غير معقول. ماذا أصابه؟ لايعقل أن الصدمة قد أصابته بهذا. الانكار مع ذلك سطحى لا جدوى فيه.

فى عمق يقينه، فى غور بعيد مثقوب فى دخيلته صوت صغير لا اسكات له: نعم نعم. حدث.

القطار مازال واقفا، باهتا، نوافذه، وأبوابه فاغرة سوداء، على الرصيف التالى، قريبا جدا، ولا سبيل إليه.

نقض عن نفسه هذا الكابوس غير المعقول، كما ينفض حيوان برى عن جلده قطرات ماء غريب. وأوشك أن يسخر من نفسه.

نعم، سقطت، هذا كل شىء. ماخيل إلى أنه حدث فى لحظة السقوط الخاطفة، محض وهم من القلق واللهفة والفقدان.

قدماه تصطدمان باللحم الطيع الممدد على القضبان، والرعشة تثلجه مرة أخرى. وهو يخطو إلى الخلف، ويتقدم، ويقع، ويقوم، مرة بعد مرة بلا انتهاء، فى عناد لا عقل فيه،، فى تصميم لم يعد يملك فيه من أمره شيئا. يطيع، فى عمى، حافزا لا يرد ولا جهد ولا ارادة فى طاعته. يرتطم وجهه ويداه وصدره، مرة بعد مرة، بلا انتهاء، بسور لا عبور منه، من الاشلاء النظيفة النقية الشاحبة، كأنه يراها فى العتمة. لم تعد هناك إلا هذه الدورة المتكررة أبدا من الاتصال بهذه الجثث والانفصال عنها، جثث أخواته، جثته، تتخايل له تحت السماء الفسيحة، مقطعة ولكنها بريئة، انثالت عنها الدماء وانحسرت تماما، وتركتها صافية بيضاء، هرستها عجلات

القطارات الذاهبة الآيبة، شقتها طولا وعرضا على الرمل والحصى، ومضت عنها. نضت عنها كل أدران الحياة وأخلاطها، مكومة، فى نسق غريب، ونظام، سيقان مبتورة. حادة البتر. رءوس مجزوزة كأنها سقطت من كلابات الخطاطيف، عيونها مازالت تترقرق فيها المياه، يقظة، أوصال متراكمة بعضها فوق البعض مرتاحة فى نوم الزمالة الأخيرة، محددة الجوانب والأضلاع، انصبت منها، منذ زمن بعيد، كل لزوجة الدماء ولوثاتها، وبقيت طاهرة مصفاة، ناعمة ولينة ولكن متوفزة ومتماسكة، تكاد ترتجف بالنبض، بقايا أجسام غضة من غير سوء، كأن فيها، مازالت، روحا محبوسة لاتريم، لاتنهزم، أنفاسا تتردد فى عمق خفى لاينال، تنتظر. فيها، مازالت، حياة قاسية باردة، لا تطالب بشىء، لا تريد شيئا، لا تقول شيئا، لكنها صارمة عبوس. لا تبرح مقامها المثلوج. ستظل تعمره أبد الدهر، تحت العجلات، وفى خواء الليل على السواء، متجهمة فى اسارها الذى لا ينفك. بادانة لا برء منها، ولا تقويم لها.

(٣)

أرصفة السكة الحديد تمتد، متينة ومظلمة، متجاورة بلا نهاية، عريضة وخالية.

والسماء المعتمة فوقى شاسعة ومنفصلة، الليل الذى فيها لا ينجاب، والنجوم ثابتة، صغيرة، لن تذوب فى أى فجر.

أسأل نفسى لماذا هذا الخواء فى هذا العالم الذى ليس لى غيره ولا أعرف كيف أخرج منه. لا أعرف أين الباب. أعرف أنه لابد أن يكون هناك، ولكنى لا أعرف طريقًا إليه، أى طريق.

كأننى خرجت من تحت سقف المحطة الزجاجى العالى، وكأن أمى وأخواتى البنات الأصغر منى قد خلت منهن المحطة، وتركتنى وحدى، أتلفت حولى، تحت ضغط اللهفة المحكوم الهادىء، ولا أرى سور المحطة من وراء الأرصفة المتكررة، رصيفًا بعد رصيف، على يمينى وعلى شمالى، بلا آخر، القضبان الحديدية بينها ساقطة على الأرض، مدورة، ملتوية ومستقيمة، متشابكة ومتوازية، عيناى تعرفان مدى صلابتها التى لا يمكن أن تتكسر، شديدة اللمعان من فرط احتكاك العجلات الدوارة بها ليل نهار. الأقراص الحديدية الهائلة التى لا تقضم منها جذاذة ولا تصنع شرخًا، بل تزيدها عنادًا والقطارات الضخمة سوداء، مربوطة بلا جدوى بقاطراتها الهامدة، لا أعرف من فيها.

يجب على أن أجد الشباك الذى أقطع منه تذكرتى. شبابيك التذاكر حوالى من وراء قضبانها الوثيقة المتقاربة، منيرة ولكن مغلقة، ليس فيها وجه، ليس فيها أمل. والوقت يفوت، والساعات الكبيرة المدورة الوجوه ممسوحة ليس فيها عقارب، ولا أجد من أسأله.

كنت أعرف أن الباب هناك تحت ممر واسع ومرتفع ودائرى العقد والهواء فيه نظيف، فى وسط جدار المحطة

الداخلى السامق العريض الأحجار، وأنه مغلق الضلفتين، ومصنوع من الحديد الرقيق المشغول. أطرافه المدببة على شكل السهام المرشوقة فى أعلاه، مطلية بالذهب، ولا يفتح إلا عندما يأتى الملك فى قطاره الأبيض ذى الشرفات المزركشة. ويفرش البساط الأحمر ويمتد تحت قدميه من عتبة القطار على طول الرصيف وعبر الباب والممر العريض المنير حتى الساحة الخارجية، وتمتلىء المحطة بالجنود والزهور فى صفوف وثيقة ومتلاصقة لا ينفذ منها شىء. ولا يقف عمال الأبواب على رؤوس الأرصفة عند الحاجز الحديدى المنخفض، لا يثقبون التذاكر بمقراضهم الحديدى الشرير الشكل ولا يقتضونها منك عند الخروج، فلا يمكن أن تدخل أو تخرج الآن. مرة واحدة لمحته من بعيد، الملك، من بين ظهور الجنود والناس الواقفين بجلابيبهم وطرابيشهم وعمائمهم وشيلانهم وربطات العنق الرفيعة الضيقة الخناق، ورأيت اهتزاز ذيل «السموكنج» الطويل الذى يلبسه على جسمه الثقيل، غريبًا على ساقيه الممتلئتين، وجانبًا من وجهه المحتقن المزدحم بالدم، وشاربه القائم بذؤابتين رفيعتين مشدودتين «بالكوزماتيك» المشمع، كان أبى يقبض على يدى بقوة، ونحن نخرج فى الزحام،

وأشم الرائحة الحريفة من معطفه وسجائره ورجولته، وهو يمسك بعصاه الرفيعة السوداء الحديدية الكعب ذات المقبض الأبيض المحفور بزخرفة عرفت عندما كبرت أنها اسمه «قلته فلتس» من العاج المخروم. كان فى ميدان المحطة قره قول من تلاميذ المدرسة الحربية بالشريط الأحمر الذى يشق البنطلون الداكن الضيق المستقيم حتى تحت الحذاء الاستيك اللميع، وبلوك من الجيش البريطانى، وموسيقى القرب الاسكتلندية بأصواتها الثاقبة المملة، والجونلات ذات الطيات المتعددة، وقطرات العرق تتفصد ببطء على الوجوه المحمرة ولا يمسحونها. والموسيقى النحاسية تضرب بقرقعات بهيجة وإيقاع واحد لا يتغير. وجندى قصير يحمل طبلاً ضخمًا على بطنه الكبير يدق عليه بانتظام دون توقف، كأنه وحده فى العالم.

جنود بلوك النظام ينزلون جريًا من عربات الجيش المربعة العمودية الجوانب، على سلالم قصيرة مثبتة فى مؤخرة السيارات، ويطاردوننا، بقمصانهم الطويلة المهدلة وسراويلهم التى تنزل تحت الركبة بقليل، وسيقانهم السوداء مربوطة بلفائف «الألشين» الكاكى الرمادية التى ترتفع إلى ما تحت الركبة بقليل. ونحن نجرى فى ميدان

المحطة الفسيح بين عربات الترام الصفراء اللون التى توقفت، واحدة بعد الأخرى، على خطوطها، والناس ينظرون منها بفضول. وكان تلاميذ المرقسية ورأس التين قد انضموا إلينا. وكنت أهتف. ولا أسمع صوتى: تحيا فلسطين. يسقط وعد بلفور. الاستقلال التام.. حملت العلم ياعبد الحكم.. الشمس حارة فى دمائنا ونحن نجرى. والشتائم البذيئة من العساكر تلاحقنا، والعصى القصيرة فى أيديهم، وكانت الشتائم موجعة جدًا. والغضب يلف العالم، ولا ينجاب أبدًا.

كان الجدار الخارجى الجانبى للمحطة، أمام باب الدرجة الأولى، يرتفع حتى الشارع العلوى تتخطر عليه عربات الحنطور التى تبدو صغيرة، وأجراسها دقيقة مصلصلة الصوت، فوانيسها النحاسية الأمامية بزجاجها المصقول المكعب السطوح، كأنه معمول من ماس كثيف ونقى، تحبس شعلات صغيرة صفراء محمرة تتقد فى النهار. وقع حوافر الحصان على بازلت الطريق له موسيقى رشيقة. وكنت أنظر إلى اعلانات «شركة الادرياتيك وتريستا للسفريات والملاحة»، والباخرة تمخر مياه الحلم المتموجة بزرقة فاتحة الصبغة، دون أن تتحرك، مستقيمة

الخطوط وهفهافة الريح فى وقت معًا، ثابتة فى سرعتها الساكنة التى لا زمن فيها ونوافذها، فى البطن المسطح، بصفحته المستوية، فتحات كاملة الاستدارة ومسدودة بلون الزجاج المعتم الشفافية.

كنت أرقب «الدبور» الذى صنعته من ورق كراسات المدرسة، مدببًا أبيض حاد المقدمة، أشد طيرانه بالخيط الطائر فى السماء، بحزم ورفق، فوق رؤوس النخل، وأنا على سطح بيتنا فى غيط العنب، وقلت لنفسى بفرح أننى عندما أكبر جدًا، وأصبح فى العشرين، سوف أسافر فى بعثة، كما سافر رفاعة رافع الطهطاوى، إلى مارسيليا، وأركب البحر على باخرة شركة الادرياتيك وتريستا، وأعرف فنون الحرية فى باريس كما لم يعرفها أحد فى مصر قط، وكنت أعرف أننى لم أركب هذا البحر، ولم أمخر عباب هذه الحرية، وأن القلب الطفلى مازال يطفو فوق أحلامه القديمة وإن كان الآن قد تصدع بشقوق رقيقة وقاتلة.

أنزل السلم العريض بدرجاته الحديدية المفتوحة، كسلالم الحريق لأقدامى عليها رنين معدنى. سياجه

الدائرى يهبط معى إلى دور سفلى فى المحطة مقيدة المسالك، خاويًا أيضًا، متكرر الأرصفة، أيضًا، بلا نهاية. والسماء نفسها فوقى، وفوق الأرصفة العلوية الأخرى، منفصلة لا تزآل، لا يهب فيها النسيم.

وأجد أمامى المصعد الكبير الذى ينزلق على بابه الحديدى المصمت، بهدوء وثقة فى مجراه المحفور، ويصطك بالجدار المعدنى بصوت ثقيل نهائى، وفى الهبوط البطىء أحبس فى قلبى الروع الذى يريد أن ينفجر. هذا الباب لن ينفتح على قط. لن يسمع أحد صوتى عندما أنادى النجدة. لن ينجدنى العالم.

وتسكت حركة المصعد الفسيح، وتمر ثانية واحدة، كأنها لن تمر، من الصمت التام. الباب مغلق، لا ينبض.

ثم يرتعش الباب ببطء، على الرغم منه، وينزلق مفتوحًا.

وأفلت منه كأنما خرجت من قبر ذى أصداء، مضىء بمصباح كهربى مدور تتحلق به شبكة اسطوانية من الأسلاك الحديدية عليها سحابة ضعيفة الحركة من الهاموش.

وتمتد أمامى الأرصفة المتكررة المفتوحة مرة أخرى وتزداد السماء وليلها الملتبس ابتعادًا، الأدوار العلوية، دورًا فوق دور، مدكات شاهقة من الاسمنت مغلقة بأحجار البازلت اللامعة.

لا أريد الاستسلام للفزع الذى فى ساقى، ولا أريد أن أجرى فى شوط لا أعرف له وجهة ولا نهاية. أرفض اليقين الذى فى جسمى بأننى ضللت إلى الأبد بين هذه الامتدادات الشاسعة من الأرصفة المتعاقبة والمتقاطعة والمتراكبة، بين أسوار البازلت الشاهقة، ترتفع عليها مصاعد البضاعة الهائلة وتسقط مغلقة الأبواب.

العناد، كاليأس، لا ينكسر.

صفارة القطار تنطلق فجأة فى الصمت المعتم الرحيب التى تقطعه مصابيح عالية صغيرة. ويتردد لهذا الصوت الوحيد صدى أجوف الصدر، يصطدم بالسقف الزجاجى المحدب البعيد، قضبانه العلوية المتشابكة فى نسق هندسى رقيق التصميم، تبدو مفصلاتها القوية العضل هشة وحساسة أمام عينى المرفوعتين.

والقطار يتخم نفسى، أخيرًا، بدقاته الرتيبة، مرة أخرى، كأنها دائمًا هى المرة الأولى، وهو ينطلق فى نور الظهر القاسى، بإيقاعه المتراوح الذى يتضخم وينفجر فى خبطة مكتومة ثم يهبط. يتضخم، ويمتلىء ويقرقع فى هدة مكبوحة، ثم يخفت. هزيمة المتصل المتناوب الصدمات يصطفق فى داخلى، دون هوادة، فى عزم ليس له إنقطاع.

أسأل نفسى السؤال الممزق، وأنا صامت، جامد الجوارح: أين يقف هذا القطار؟ وإذا وقف، فكيف أعرف أنها محطتى؟

إيقاع دقات العجلات على القطار، منتظمًا، لا يفرغ، وطنين المحرك الملىء بالقوة لا يبالى شيئًا، هو صمت خاص.

الزجاج المحكم على السخونة الهفهافة فى العربة المكيفة الهواء يبدو منيعًا، لا يخترق.

وكأنما على الرغم منى ارتفعت يدى، لا أملك لها ردًا، تبحث وتتلمس بلهفة مضغوطة متطلبة. يدى تريد أن تجد مقبضًا أمسك به، مفتاحًا أديره، زرًا كهربيًا أضغط عليه، حلقة معدنية أجذبها، أريد أن أفتح الزجاج، أنشق الهواء

البارد الذى أراه يهز أشجار الغيطان وعيدان الذرة، أعرف نسمته المترية المحيية. لا ينال.

جدار القطار المعدنى منبسطًا وناعمًا، ليس فيه أدنى يخدش ولا نتوء، لا يقطع سطحه المصمت شىء. والستائر الكرتون الصفراء بلون المستردة الغامق تنسدل على جانبى الزجاج بريئة، بيتية، أحس فيها مع ذلك قصدًا خبيئًا، وهى مصنوعة بمكر وأناقة متكررة، كلها متطابقة.

ترتفع يدى مرة بعد مرة، بإرادة خاصة، أكابد الحيرة التى لا تنقضى. وأجاهد حتى لا تبدو على هذه المكابدة الوحيدة، فاسترق النظر إلى الركاب الصامتين، كل منهم وحده أيضًا. حتى الأزواج والرفقاء، متفارقين. وأعرف أنهم يسترقون النظر، فى أعينهم اتهام غير معلن، مترصد، هل ينتظرون اللحظة التى يفصحون فيها عن شىء كالاثم قد اقترفته، لا أعرف ما كنهه، لكنى أعرف أنه هناك؟ وأفاجىء نفسى بالسخرية من نفسى: تظن نفسك من أصحاب الآثام، وتظن ذلك بطولة مقلوبة على وجهها، من غير شريك؟ والشركة فى الأثم لا هى تبرئك ولا هى تمجدك.

وقلت لنفسى ليس بين هؤلاء الذين يركبون معى من يثير الاهتمام.

هذه المجموعة المعتادة من ركاب «الديزل» الدرجة الثانية المكيف: أواسط كبار الموظفين بعيونهم المتورمة وذقونهم المتهدلة اللحم وحقائبهم «السمسونايت» الأصلى والمقلدة التى تحمل أوراق الادارة أو الشركة أو تصميمات المشروعات المريحة للجميع، وضباط الجيش الشبان، والذين ليسوا شبانًا جدًا، بملابسهم الكاكى المكوية وقد خلعوا الكاب ووضعوه على الرف العلوى المزدحم بحقائب جديدة صغيرة ومتوسطة وبأكياس النايلون المنبعجة بما فيها، والزوجات - أو غير الزوجات - المنهكات جفت النيران الوجيزة التى عرفتها بسرعة، مكحولات ومصقولات الخدود وشفاههن داكنة الاحمرار بالماكياج المستورد، صدورهن المشدودة لم تعد لها جدوى، والمقاولون، والسماسرة والتجار ورجال الوكالات وشركات التصدير وخصوصًا الاستيراد، لا تخطئهم العين، ملابسهم غالية ولكنها مازالت توحى بالجلباب الحرير والقفطان الشاهى والمعطف البلدى، عيونهم صلبة ومعدنية. وقلت لنفسى لا، لا يهموننى، لست منهم. وأعرف أننى لا أختلف عنهم فى

شىء. ولعلهم يعرفون أننى معهم. وقلت لنفسى لا، لست منهم، لست أنا. ثم قلت لنفسى ومع ذلك فأنت هنا، معهم، فى قطار واحد، وعربة مكيفة الهواء واحدة، وسوف ينتهى القطار بنا جميعًا إلى محطة واحدة. ويداى تحترقان فجأة برغبة لا جدوى منها فى أن أجد مفتاحًا يشق إنسداد هذا الزجاج المغلق على وعليهم. ورأيت فأس الحريق الحمراء الصغيرة، فى صندوق زجاجى مغلق بإطار معدنى من الالومنيوم الثقيل ومعها تعليمات مطبوعة عن كيفية استخدامها عند إندلاع النار. أين رأيت هذه الفأس؟

هل يمنعونى من النزول عندما تأتى محطتى؟ وما محطتى؟ هل يعرفون أننى ليس معى تذكرة، يعنى أنه لا مكان لى هنا، فى حقيقة الأمر؟ وهل هذا صحيح؟ لا أذكر هل اشتريت تذكرة، ولا أريد أن أبحث عنها الآن فى جيوبى، فى المحفظة، بين صفحات مذكرة الجيب، لا أريد أن أثير شبهاتهم، لا أريد أن أستعدى إتهامهم، لا أريد أن أستفز هجومهم، لست أخافهم، صحيح، لكن ما الداعى لأنواع من سوء الفهم وتخبط المقاصد؟ سأنتظر حتى يأتى المفتش وتنتهى المسألة، إما أن أجد التذكرة أو أدفع الثمن مضاعفًا، والغرامة، وبدل التكييف والدمغة والرسوم. أم أن

المفتشين يرفضون قبول الثمن، ينتظرون حتى الوصول إلى أول محطة، ويأخذون المسافر الذى اقتحم القطار إلى مكتب الناظر.. لكى.. ما هى الكلمة؟ لكى.. لكى.. يطوق.. نعم هذه الكلمة. يطوق، أو يحبس.. لا.. لا.. كان هذا من زمان. فى طفولتى. أليس كذلك؟ لم يعد الأمر الآن على هذا النحو. لم هذا الفزع المستكن لا يريم، بذرة أثرية قابلة للانفجار، لا تريد أن تتفجر عن شجرتها السامة، ولا تريد أن تموت. غريب أن المفتش لم يجىء حتى الآن. لابد أننا سافرنا ساعات وساعات. هذا القطار مباشر صحيح، لا يعرج على المحطات الوسطى.. الام يذهب؟ ما المحطة التى يجب على أن أنزل فيها؟ عندما تأتى سوف أتعرف عليها. سوف أعرفها سوف أعرفها سوف أعرف اسمها. من شكل الأرصفة، وشبابيك التذاكر، والأبواب الجانبية، والسقف، سوف أعرفها من نداءات الحمالين، ممن ينتظرون. يجب أن أعرفها.

كان القطار قد ارتفع فجأة فوق جسره، يتسنم طريقًا له وحده. وهبطت الأشجار تحتى، ورأيت ذؤاباتها الكثيفة تتوس برشاقة غير إنسانية موسيقية، خبطات القطار قد ازدادت عمقًا، ولها صدى، وهو يشق السماء المحايدة المحجوزة وراء الزجاج المسدود. حدائق البرتقال تمتد تحت

حدائق البرتقال تمتد تحت الجسر، تبدو نائمة، شجرها قصير ومدورة وخضرتها داكنة والحبات الصفراء المخضرة مرشوقة فى الكثافة التى تنضم عليها، بنهم، كأنها ملصقة هناك، غير حقيقية، فواكه الشمع التى كنا نضعها فى فسحة بيتنا وأنا صغير، خداعة لا تؤكل ولا رائحة لها. وعلى حواف الجناين أشجار الموز القميئة، مفلطحة الأجنحة، عقيمة، تآكلت أطراف ورقها العريض الذى يتهدل هش النسيج. والطرق تتشعب، تحت جسر السكة الحديد، إلى مفترقات وممرات ضيقة بين الغيطان الصفراء المحشوشة الزرع، والبرك الصغيرة بمائها الأسود الراكد عليها وز قليل يجرى فجأة مفزعًا لا أسمع صوته، تحت أسوار حجرية تعلوها اسلاك حديدية مدببة، تحيط بخرابات مهجورة فيها طوب وكتل من الاسمنت ولافتات زرقاء واسعة تحمل بالحروف الانجليزية والعربية أسماء شركات وبنوك إيرانية وسعودية مصرية مشتركة ونوايا مصانع لأجهزة التكييف وثلاجات للخضر والدواجن ومناطق حرة للتصدير والتوريد، وربوة مضطربة الارتفاع تأتى فجأة، وعليها الشواهد ومكعبات القبور المحدبة جديدة التلوين، تحت شجرة الجميز العتيق.

خطفت تحت بصرى فجأة، على حافة الترعة البطيئة الجريان، سيارة مرسيدس واقفة متمرة، فاجرة اللمعان تحت ورق الموز المسطح الجاف، وبالقرب منها نساء سمينات وجوههن كالخزف الأملس، مشقوقة الأفواه والعيون، يأكلن بتصميم وصمت من طواجن متعددة، يجلسن على ملاءة سرير وردية اللون مفروشة على تراب الغيط، وأيديهن لا تتوقف. تحمل قطعًا كبيرة من اللحم والخبز الملىء بالطبيخ إلى الأفواه المصبوغة. وكانت أفخاذهن عارية وسمراء وكثيفة فى جلستهن على الأرض، وأولادهن يتحلقون حول الطواجن وترامس الماء الكبيرة البطون. وبينهن فلاحات عجائز، كأن أجسامهن خشبية، بالطرح السوداء الجديدة، يقفن غير بعيد، بلا حركة. إندفع القطار، وارتفعت وجوه النساء إلى، الأفواه تتحرك، والعيون جامدة من اللذة المكررة المعتادة، واختفين وراء القطار.

نافذة القطار المزدحم مفتوحة، وأنا أقف بين الناس والقفف واللفف والربط والسلال الشائكة الخوص والحقائب الكرتون المقوى المصبوغ بلون الجلد، أضع قدمًا واحدة على أرض القطار المهتز، واستند بذراع اثقلها التعب

والتوتر على مسند المقعد الخشبى وراء رؤوس الفلاحين وأولاد البلد المتلاصقين باللبد والطواقى والطرابيش، وقدمى الأخرى مرفوعة محشورة بين السيقان والشنط والكراكيب التى يكتظ بها ممر العربة. الرياح يجرى تحت القطار بمياهه الحمراء عفية العضلات، أمواجها الصغيرة تسابق القطار وتتقلب عليها كتل صغيرة من الطين والقش والأعواد الخضراء. هواء العصر فى هذا اليوم من أواخر سبتمبر يهب على وجهى، باردًا وقويًا، من النافذة الخشبية المفتوحة، ويدخل بنفث الدخان الدقيق الذى أحس ذراته السوداء على يدى وأعلى صدرى تحت القميص غير المكوى المفتوح من غير كرافته، والجاكتة الصوف الجاهزة. الأشرعة البيضاء شامخة فوق أجسام المراكب المدببة الصدر ثابتة الجريان على مياه الترعة التى تبدو فجأة ضيقة ومزدحمة.

قرقعة القطار لا تتوقف، والأفندى، بجانبى، يتحدث بثقة من تحت شاربه الكث ومن كرشه الكبير، ويقول لفتى اسكندرانى أمامه، ملوح الوجه وأزرق العينين، باللاسة اللامعة واللباس الأسود الواسع المتهدل الطيات، أن الحكومة عملت وزارة جديدة اسمها وزارة التموين، وسوف

تعطى الناس كوبونات للجاز، وبطاقات، دفاتر صغيرة مخصوصة يعنى، فيها أسماء العائلة وتصرف لهم السكر والزيت بها. وامرأة ممتلئة القوام فى ملاءتها التى تراخت على كتفها. وكشفت عن صدرها النازل من فتحة فستانها الواسعة، مصمصت بفمها الشهوانى ورفعت حاجبيها المحفوفين، قوسين رفيعين على عينيها اللامعتين من الالتصاق بأجسام الرجال، تحت قمطة شعرها المحبوكة على جبهتها المدورة وسألت: كيف تترك الواحدة أسماء ضناها، اسم الله عليهم، عند الحكومة والبقالين ومن يسوى ومن لا يسوى؟ هذا لا يرضى ربنا، حتى. ونظرت إلى الولد الاسكندرانى العترة إلى جانبها، بطمع صريح. وتذكرت أمى. وكانت صحوة رجولتى الجديدة مذنبة. وكان جسمى كله مشدودًا من الوقفة المتزعزعة والزحمة واليقظة فى الفجر وركوب الحمار مع أختى الصغيرتين وإنتظار القطار الفرعى فى محطة كفر داود الذى يتوقف كل خمس دقائق، ثم الانتظار فى محطة ايتاى البارود للحاق بقطار الاسكندرية. ولم نكن قد أكلنا الا القراقيش التى عملتها لنا جدتى باللبن الرايب والزيدة، وأوصتنى على اخواتى ودعت لى بأن يكتب لى فى كل خطوة سلامة

وأن يحوطنى، بحق ابنه يسوع، ببركة الصليب فى كل مطرح أحط فيه رجلى، وقبلتنى على خدى بشفتيها الجافتين. وشممت رائحة الحطب والخبيز من طرحتها السوداء وهى تضع حولى ذراعيها الصغيرتين.

أستند بجزء من ظهرى إلى القفة الكبيرة التى وضعنا فيها الوزة المذبوحة المنتوفة الريش، والقراقيش، وصفيحة الزبدة التى سوف تسيحها أمى لتعمل منها السمنة والمورتة، واستند بجزء من جنبى إلى حقيبتنا الكبيرة التى ربطنا فوقها، بدوبارة غليظة، لحافنا القديم. ولم يكن اللحاف نظيفًا جدًا، كنا قد تغطينا به منذ كنا صغارًا جدًا، أنا وأخواتى، عامًا بعد عام. والهواء يندفع من نافذة القطار فيفضح رائحة اللحاف. والفتاة التى تجلس أمامى، ملتصقة جدًا بأختى من ناحية، وبالست العجوز المهدمة التى لابد أنها أمها، أو خالتها، من ناحية أخرى، تحول وجهها عن الحقيبة كلما إنحرف القطار فى طريقه فاشتد تيار الهواء. وأحس العرق الخفيف يخز وجهى بفتات دخان القطار الدقيق. وكان وجهها جميلاً وسمرتها صافية وحية، وعيناها حادتان متقلبتان بموج صغير فاتح الخضرة. وجسمها المزحوم يبدو لعينى قويًا ومتوفرًا، مدور البطن،

وكان صدرها كبيرًا ومحبوكًا ومثيرًا. وتنظر إلى، ولا أجرؤ على فهم ما تقول عيناها. وقلت لنفسى هل هى تلميذة بالثانوى تعود للمدرسة، مثلنا؟ أو بائعة فى صيدناوى، مثلاً، أو هانو؟ وسرحت فى قصة عن أنها تحب ولدا مثلها وأنه يحبها ويشتاق إليها. وقالت لى فجأة بصوت غاضب ألا أستطيع أن أزحزح هذا من أمامها؟ ألم يكن هناك مكان آخر أضعه فيه؟ وأصابعها المكتنزة الدقيقة الأطراف بعيدة كأنها تخترق، جارحة، ربطة اللحاف التى يضطرها الزحام أن تضغط بساقها عليه. فرددت عليها بصوت هادئ ومؤدب ومثقف إننى متأسف ولكن الأمر لم يكن بيدى فقالت بصوت حار وثاقب إن هذا غير ممكن وغير لائق حتى، ووجدت نفسى أجيب بصوت مستثار ومستفز أنها ترى بعينها هذه الزحمة وأنها لو تستطيع أن تجد طريقة فلتتفضل بأن تقولها، وقالت هذه الربطة هل يعنى من نصيبها أن توضع أمامها، وما هذه الربطة؟ أهذا يصح يعنى؟ ولم أنتبه إلى أن سؤالها كان سؤالاً حميمًا، وكانت عيناها الآن مشتعلتين وكان صوتى الآن عدوانيًا ومهاجمًا وأنا أقول أنه يجب أن نتحمل بعضنا ساعة زمن على أقل تقدير وأننى لست السبب فى قيام الحرب وزحمة

القطارات وأن المسألة ليست ما يليق وما لا يليق بل مسألة ظروف لا نتحكم فيها، وضبطت نفسى أوشك أن أفلسف أخلاقيات زمن الحرب فسكت مرة واحدة وسكتت هى بعد أن تنبهت إلى الناس حوالينا وكانوا ينظرون إلينا، وكانت السيدة الملفوفة التى تبدو فى عنفوان نضوجها المتأخر قد مالت على الولد الاسكندرانى جارها، تتابع الخناقة، ورفعت يدها تسوى مدورتها بسرعة على شعرها، وإنحدرت الملاءة السوداء على ذراعها العارية البيضاء المتموجة المياه، وكان جانب ثديها الآن ملتصقًا بكتف الفتى وبدا كأنها محبوس وممتلىء. وعادت قرقعة القطار تتابع وتدق، مرتفعة مرة أخرى، وتغرق همهمة الكلام ونداءات البياعين الذين يقفزون وينحشرون بين الركاب والقفف والحقائب، يحملون على رؤوسهم مقاطف اليوسفندى الطازة العشرة بقرش. واكتشفت فجأة وهى تنظر إلى بعينيها الخضراوين، فيهما غضب وفهم، إننى متوتر وصلب جدًا، وإن بطنها دمث وراسخ، وصدرها يهتز، بثقة، مع هزات القطار الرتيبة.

عندما ماتت أختى بالتيفود فى آخر ذلك العام تذكرت نظرتها الوديعة إلى وهى بجانب هذه الفتاة، كأنها تغفر لى،

وتذكـرت أننا لن نجـد عـربة حنطور تقبل أن تحملنا إلى البيت من المحطة بثلاثة قروش وهى كل ما كان معى، وأننى حملت الحقيبة وتركت لها القفة الكبيرة وكانت ثقيلة عليها، فرفعتها وحملتها فوق رأسها، وهى ماتزال طفلة، بالكاد فى الرابعـة عـشرة، وكـانت نحيلة وشـديدة السـمـرة وشـعـرها مـجـعـد وعـيـناها فـيـهـمـا شـجن لا أفـهـمـه وهادئتـان، ومسـحـوبتان كـحبات اللوز، وصـعيدية جدًا، وكـانت أقـربنا شبـهًا بـأبى. وبكيت عندمـا تذكـرت كيف كـانت تسيـر إلى البيت بصبـر وصـعـوبة، أمـام المقـاهـى والدكـاكين المنيـرة المزدحـمـة فى أول الليل، وتقـول أنهـا ثقيلة فـأقـول هانت وسنصل بعـد دقـائق، وكـانت دمـوعى صـافـيـة لأول مـرة وعـرفت أن البكاء لا مـعنى لـه وأن الألم الذى يمـزق القلب شىء لا وزن له ولا يجـد شـيـئًا عند أعـز النـاس إلى القلب. وتعلمت شـيـئًـا آخـر عن الـوحـدة. وأنا أبكى الآن، بعـد السنوات الطويلة، بلا ضرورة أيضًـا. وكنت حزينًا وأنا أفكر أننى سـأجـد أختى تنتظرنى على الشـبـاك وسـوف أرى وجـهـا الصـعـيـدى الناعم السـمـرة وعينيـهـا العـمـيـقـتـين الخـجولتين بسوادهـمـا الذى تخفيه عنى، وأنها ستقدم لى

فنجان القهوة المضبوط الذى تعرف كيف تصنعه لى، لكى أسهر طول الليل أنهى كتاب تاريخ الحضارة وأرده غدًا للمكتبة البلدية. وقلت لنفسى أننى لن أضربها على وجهها بعد الآن لأنها تقرأ رواية غرامية من روايات الجيب. وسأقول لها ألا تسهر تنتظرنى حتى أعود بعد منتصف الليل وبعد أن ينام كل من فى البيت وتعد لى عشائى وتسألنى إذا كنت أريد فنجان القهوة المضبوط، لا داعى أن تسهرى، نامى أنت، سأعد لنفسى العشاء. وكنت أفكر أن الحزن ورقة القلب غريبة وقد فات أوانها من زمن بعيد، وليس لها الآن أدنى أهمية.

كان زجاج النوافذ مصمتًا والستائر الثابتة الكريتون الداكنة الصفرة تبدو كأنها ورق ديكور قديم وكركرة تكييف الهواء الجافة قد سكتت والناس صامتين يتحركون كأنهم مرغمون على النزول. ضباط الجيش من غير حماسة الآن، والنساء اللاتى بهت الماكياج على عيونهن المرهقة الظالمة، والمقاولين بعد غلظة الأكل والبيرة وحسابات المكاسب العقلية وغير العقلية راضين جدًا ومثقلين بأجسامهم التى كأنها ماتت عنهم.

والقطارات المنطفئة قد توقفت أخيرًا فى ساحة المحطة الداخلية التى تتوقد فيها مصابيح متناثرة على أعمدة عالية، بقعًا باهتة تسقط ضوءًا قليلاً على القضبان الحديدية. وتعريشة نباتات طازجة الخضرة فى النور المصنوع، تتسلق جدران كشك خشبى مفتوح الباب، ووراءها أوراق التين الشوكى العريضة الكثيفة الجسد، أيديها ممدودة مدببة السنان، خضرتها غضة وشرسة وتوشك أن تتفجر بدمائها. أكوام تراب الفحم عالية ولامعة السواد بجانب الخضرة. القطارات قد أفرغت من سكانها، ونوافذها فوهات محترقة وعليها سواد الدخان. والدبابات الفاتحة اللون فى الليل يقظة ومعمورة، خارج السور الحديدى الطويل، مدافعها ثابتة تخترق الظلام، مترصدة.

طلقات الرصاص بعيدة، تتجاوب متقطعة لها أصداء تتردد بين الشوارع التى انحسر عنها الناس، فاتسعت وهى تشق قلب المدينة الصامتة. والبيوت خارج سور المحطة مرصوصة ومتطابقة ومسدودة النوافذ، غارقة فى الماء، مظلمة كلها، أعرف أنها مغلقة على نفسها، حقل من أزهار عباد الشمس الحجرية فى الليل طوت أوراقها القديمة الصلبة على بذورها وتضاعت أعمدتها الساقطة التيجان

واقتربت بدون صوت من بعضها البعض فلم تترك بينها فسحة لاعتداء الليل.

وقع خطواتى ثابت وواثق على الحجر وأنا أرتفع، فى الظلمة، على حافة بناء شاهق يقف على طرف جسر ترابى مرتفع، وتحته الماء الراكد كأنه مرآة ساكنة السطح، مدت عليه ألواح من الخشب تصل بين الرصيف وحائط البناء المتين الأحجار. أصعد السلالم الخارجية المنحوتة خارج البرج، من غير سياج، كتلاً صغيرة ضيقة وعرة، مرصوصة فوق بعضها البعض، من حجر أبيض ثقيل الملمس تحت قدمى.

أرتقى السلالم الحجرية بعزم معقود وأساسى، وأنا أرزح بالنشوة والغضب، معلقًا على حافة هذه السماء التى إمتلأت بجسد الليل. أعرف أننى لا أستطيع النزول، أننى لا يمكن أن أنزل الآن، وأننى أصعد إلى هذا الوجه بسمرته الصافية، وموج عينيه، إلى هذا الجسم الناعم الراسخ الذى سيبقى معى إلى يوم موتى، وإنه لا يمكن أن يفصل بينى وبينها شىء.

(٤)

كانت الشمس شتوية مغسولة، وهواء البحر يأتى إلى من فوق ربوة الرمل الجاف التى ترتفع مباشرة على جانب الرصيف الحجرى العالى فى المحطة. أقف وحدى فى المحطة الخلوية التى ليس فيها أحد، أحس الحجر الأبيض الهش فيه خيانة كامنة، تحت قدمى، والقضبان الحديدية تنساب فجأة بصمت بين الرصيفين القائمين، يرتفع على جانبيهما صفان من الأعمدة الرقيقة تلتف حولها أغصان متلوية رفيعة الجسد من الحديد المشغول، كأنما تعتصرها فى شبق متكوم . أرى الأعمدة تصعد نحيلة، ولامعة فى نور الصبح بلمعة منطفئة، حتى تعلو عن الربوة الرملية

وهى تحمل السقف الزجاجى المحدب المحمل على عوارض أفقية مسطحة بينها أعمدة متينة قصيرة تترك فجوات للنور والهواء على شبكة العوارض. لوحات السقف الزجاجية تومض عليها الشمس وقد ضربت فيها عروق الحديد المستقيمة وشرايين متشرجة من دخان القطارات المتراوح السواد.

هبة هواء تحمل ورقة صحيفة يابسة على القضبان، ترفعها وتتخبط بها فتخشخش على الزلط بين الفلنكات الخشبية بمساميرها الغليظة الرؤوس، بصوت مسموع.

تتفرع القضبان بعد انتهاء الرصيف مباشرة إلى شبكة واسعة متعرجة ومتلاقية ومتفارقة ومتواشجة تدور وتنحنى حتى تنتهى فى البعد الغامض، تحت شمس بينة، إلى ركام من أحجار قديمة، وأسياخ الحديد الصدئ وأكوام الفلنكات الباهتة الخشب، وصهريج ماء فارغ مدور ومقلوب على جنبه متغضن الجدران امتلأ نصفه بالرمل والزلط، وجدران أكشاك تقشر طلاؤها الأخضر العتيق، ساقطة بين أجسام الصبار والتين الشوكى الغليظ الأقراص.

كنت وحدى، أنتظر القطار الذى تأخر كثيرا وأسأل

نفسى بقلق فى هذا الخلاء: هل جاء وذهب؟ ولم أنتبه إليه؟ كيف يمكن؟ ولم أكن أعرف مع ذلك إلى أين سيمضى بى القطار، إذا جاء؟ مرسى مطروح؟ أم أبو قير؟ هل هذه محطة الضبعة أم العصافرة أم عين الشوك؟ عين الشوك؟ أهذه محطة؟ أين هى؟ كأننى لم أعرفها أبدا، وهى مع ذلك مألوفة أركب منها كل يوم.

نفح عطن خفيف جدا لايكاد يحس يسرى إلىّ على مهل من الجانب المفتوح للمحطة، عبر منحدرات رملية واسعة وهينة التحدر داكنة اللون قليلا من البلل. من ورائها أحس فقط، ولاأرى، مستنقعات الملاحة والهيش المتكاثف فوق الماء الثقيل.

وفى وسط سهل الرمل الصلب العريض أرى، من بعيد، بيتا حجريا يبدو صغيرا، وحده، له شباك مغلق، وعلى سطحه غسيل منشور، ملاءات مصفرة البياض وجلاليب نسائية ملونة ترفرف فى العراء بصوت اصطفاق القماش الخشن فى الهواء.

رفعت رأسى كأنما حفزنى شئ لاعج ومفاجئ فرأيت أختى لويزة تجرى بقدمين خفيفتين حافيتين، كأنها ترقص

علي موسيقى واسعة الجناحين لاأسمعها، على طريق غير مرصوف، فوق الربوة الرملية العالية، وشعرها الوثير الفاتح اللون يطير فى زرقة الهواء، وفستانها الخفيف يهفهف حول ساقيها البيضاوين الممتلئتين، المتحركتين فى رقصتها بلا وزن ولاثقل، كأنها تسبح، يحملها الهواء من غير أدنى مقاومة. وكنت أعرف أنها ماتت منذ سنين، محروقة، فى المستشفى الفرنساوى فى اسكندرية. وكنت أحمل فى قلبى نظرتها الأخيرة قبل أن تموت، وقد تمددت على فراش المستشفى، بلا حراك الآن، ضاوية، جافة، جلد ظهرها كله احترق وسقط، ولحمها الموجوع مكشوف الأعصاب تحت الضمادات الكبيرة برائحتها النفاذة الحريفة، وقد أنهكها عذاب الحرق والعلاج الطويل والتخدير المتصل فما عادت قادرة على الكلام. أمسكت بيدها وأحسستها تسلم يدها لى، من غير حركة، وفى عينيها المثقلتين المفتوحتين على سعتهما سؤال لا رد عليه، وعتاب نهائى.

وكان وجهها البيضاوى الممسوح مرفوعا إلى فوق، فى رقصتها المتماوجة، مضيئا بنور ناعم من سماء البحر القريب.

أخذت أجرى معها، وأنا تحت، أجرى بين القضبان فى المحطة التى تتسع وتنحدر وتطبق على، وسقفها أجده منخفضا وعريضا وبلا نهاية، والقضبان تتلوى حوالى، بين قدمى، بتفريعاتها الخبيثة الشكل. وقد امتلأت المحطة فجأة بالناس المسرعين مسافرين وواصلين، والحمالين، الذين يجرون أمامى وورائى أكاد أتعثر بهم. وأجد نفسى أمام حواجز حديدية مشبكة مغلقة من خلفها المراقبون يتربصون بى، وفى أيديهم المقراض الحديدى الضخم البشع الحواف، بلسانه المدور الحاد الذى أعرف أنه لو انطلق بضغطة من اليد من بين الفكين القابضين فسوف يثقب صفحة قلبى المثقلة بسنه القاتلة المدببة، ثقبا واحدا، يغوص حتى النهاية، والصمت. وأكاد أصطدم بالمفتشين فى البدل الميرى الداكنة واقفين، يعرفون، وينتظرون، ووجوه أخرى، كثيرة كثيرة، جامدة تماما، غير حليقة، تطل على من نوافذ القطارات الطويلة التى أجدها عن يمينى وعن يسارى، فأجرى تحت، فى وهدتى الحديدية المتعانقة الخطوط، بلهف ومضض، وأعرف أنه لا نجدة لى.

كنت أريد أن أصعد إليها قبل أن تختفى وراء ربوة الرمل بعد المحطة، أريد أن أتلمس طريقا إلى الجسر اللدن

الطرى الكتلة، وأعرف بمجرد الرؤية أن رمله الناعم سوف ينهار تحت قدمى لو استطعت أن أجد السكة إليه، حتى لو استطعت أن أضع قدمى عليه.

وكنت أتسلق المرتفع الرملى الآن، قدماى لاتثبتان، تنزلقان على الرمل الذى ينحدر فجأة تحت ثقلى. وأرى، وأنا فوق، الشارع الرملى الطويل، غير مسفلت، والبيوت عليه من الجانب الآخر منخفضة وحجرية بنافذة واحدة عريضة كبيوت المكس والدخيلة القديمة. وأعمدة النور المتلاحقة على رصيف واحد من الشارع مطفأة فى الغروب الذى يظلم سريعا. وفى الشارع، عميقا تحت، امرأة عجوز نحيفة الجسم جافة، بملابس سوداء متربة، وعلى رأسها طرحة قديمة مشعثة، وهى ترفع إلى يدها، ولاأفهم ماذا تريد. هل هى تطلب منى شيئا أم تعطينى؟ ويفدحنى ويعذبنى أننى لاأعرف، بينما أعلو فوق الرمل وأهوى. وفى غبش الغسق الناعم الملمس تنفتح النافذة الوحيدة فى بيت تحتى مباشرة، من الناحية الأخرى عبر الشارع الخالى، والنور من مصباح كهربى عار ينصب وراء وجه المرأة التى أعرفها وأحبها، مدورا، وخمريا، وأسيل الوجنتين، ولكنى لاأراه فهو معتم فى النور الذى يأتى من خلفه، ولا أرى لون

عينيها ولكنى أعرف من زمن سحيق خضرتهما العميقة بلون الصبار الغض القديم، وأحس نعومة جسمها وانسياب ثيابها ووهج النور على شعرها المغدودن الكث. وأريد أن أناديها وأمد إليها ذراعى فأسقط على الرمل. وأحس نفسى أتدحرج عليه، وأهوى وعلى وجهى مس حبيباته الرقيقة أنشق رائحتها المصوحة، وأنا أتشبث بيدى كلتيهما بالكتلة المتهاوية التى تفلت من أصابعى. أثبت قدمى فلا أجد موطئا، وأحتضن الرمل اللين فلا أجد موئلا ولا مأضم ذراعى عليه. وأعرف أننى مهما تمسكت به فسوف أنحدر وأنقلب، وأهوى إلى مالانهاية ولاقرار.

وأجد نفسى، تحت، على طريق القضبان، فى باحة هذه المحطة الغامضة التى غصت الآن بقطارات تصل وتسافر تهج وتنفث وتصفر صفيرا ثاقبا تتردد أصداؤه بين جنبات المحطة. والنور الكهربى من الأعمدة العالية محصور وميكانيكى الوقع. وثم طاقة مهدورة تنفثئ فجأة تحت عجلات القاطرة السوداء التى تنزلق بصمت وتمكن، حتى تقف راسخة وعالية. قطارات تقوم بانسياب بطئ هادئ، تقلع بصدورها المدورة العريضة إلى محطات لن أراها أبدا. وقطارات خالية معتمة ترجع على أعقابها فى مناورة

حريصة لتدخل خطا متفرعا آخر، عجلاتها تخبط فجأة إذ تصطدم بالتحويلة فى القضبان. أما أنا فأجرى مبتعدا عن القاطرة القادمة، المداهمة، متجهة نحوى بإصرار. هل أنا أجرى من شئ أم أبحث عن شئ؟ أم أنهما كلاهما، مايدفعنى بلا هوادة إلى هذا الجرى الثابت الخطى لاأحس له جهدا ولا عبئا ولايمكن أن يتوقف؟ لاأعرف. لايهم. المهم هو هذا النداء الذى بلا صوت، ماأنى أنشده، وأنتظره، ويشدنى، فأجرى وأثب بخفة كأنما يرفعنى شئ ما، فوق درجات حجرية صغيرة، درجتين درجتين كل مرة، فى آخر الرصيف، وأدور إلى الوراء بعيدا عن سماء الليل المفتوحة، بعيدا عن أخطار القضبان التى لاأدرى أيها سوف يمر عليه القطار المهاجم. وأدخل مرة أخرى إلى ركن المحطة المسقوفة بالزجاج المعتم والحديد المغروز، بين صفى الأعمدة الملفوفة الجسم، فأجد فى وجهى مصعدًا ضخما ليس له باب. ماأكاد أضع قدمى على أرضيته الخشبية العريضة حتى يصطفق له باب ذو مفصلات منزلقة تتفتح فجأة بعد انكماشها فى مخابئها، وتتمدد، فيوصد على المصعد الثقيل الذى يهبط، بين أعمدته المكشوفة، على أرصفة متعاقبة أحدها تحت الآخر، حتى يصطدم

بالأرض. وينفتح الباب تلقائيا على مخزن شاسع معتم ورطب الأنفاس فى دور سفلى ليس فيه إلا أكوام الأخشاب المرصوصة الشاهقة الارتفاع، نقية وميتة وعارية.

أجرى مستريح الخطو، وصدرى فسيح وهادىء، إلى فوهة منيرة ساطعة، مشدودا إليها بدعوة لا غلاب لها، فأدخل فى نفق واسع دائرى الجدران كأنه أنبوبة مبطنة ببلاطات الخزف الصينى تومض ببياضها الزلق ولاتنتهى ولاينتهى جريى فيها، حافيا، أحس دفء الجرانيت الأحمر الخشن الوجه تحت باطن قدمى. والضوء القاسى يهبط على ثم ينقطع، ويسقط على من جديد، حزما متعاقبة لا رحمة فيها، من مصابيح عريضة التدوير ومسطحة ومتقدة بوهج بارد، تتلاحق فوقى إلى مالانهاية. وهواء الانفاق المحمل برائحة خاصة يهب على وجهى الذى أحسه يتفصد برشح العرق، دون أن أنهج، وليس فى صدرى ضيق ولا غضب، ولست خائفا، ولاأطلب شيئا، كأننى فقط أؤدى واجبا، ولن أصل أبدا إلى شئ.

وكأنما هذا هو.

هذا هو حقا قطارى. الذى أن ذهب فليس لى غيره.

قطارى يرتفع أمام وجهى عاليا، راسخا.

لكنه يقف على الناحية الأخرى من الرصيف، وأنا تحت بين القضبان وفى يدى حقيبة صغيرة ولكنها ثقيلة.

والعربة مرتفعة، سلالمها الضيقة الحديدية يصعب ارتقاؤها من حيث أقف. الكمسارى يطل على من الباب السميك المفتوح إلى الداخل. وجهه غير حليق ومظلم وهو ينحنى على، يمد إلى يده من غير مبالاة. لم أسأل، ولم يقل شيئا. أحاول أن أرفع يدى إليه، أن أصل بيدى إلى قبضته. يجب أن أصعد إلى القطار. هذا القطار، وحده، دون غيره، يحمل شيئا أو شخصا هو الأعز إلى، هو الذى يعطى كل شئ معناه. والجهد الشاق لايكاد يحتمل، وفى ذراعى ثقل لايطاق، وأبذل كل جهدى، ويدى لاتصل، بينما القطار قد أخذ يتحرك. لاأستطيع الصعود مهما حاولت، والقطار يتحرك ببطء. العجلات الشريرة العارية تدور على مهل، ساكتة مصممة، ثم تتسارع قليلا، وأنا أجرى بجانبها تحت الباب المفتوح، يدى بالكاد تحت يد الكمسارى الممدودة التى ليس فيها كبير اهتمام على أى حال، ولكنها ممدودة إلى، لاألحق بها، القطار أسرع منى، يستجمع

عـزمـا يفـوق عـزمى، ويفلت منـى. أيقاع انطلاقه لاأدركـه. يذهب عنى. أفـقـده. وضـعت فى ساقى كل قـواى، جـريا، ممدود اليد، مثقلا بحقيبتى الصغيرة، وكأن قدمى مكبلتان وهمـا تخـبطـان الأرض، الآن، ترتفـعـان بالكاد وتـرتطمـان بالأرض التى تشـدهمـا بقـوة وتقـبض عليهمـا. أتحـرك بكل مـافى قلبى من اصـرار، فى استنفاد. وهأنذا قـد ضـاع منى قطارى. تصلبت سـاقـاى ونـاء بجـسـمى كله وطء رازح فى العضـلات التى سفحت كل قطرة من جهدهـا. أجرى بايقاع ثقيل تتخبط ساقاى احداهما بالأخرى، وقد مضى القطار عنى، بقوة، وصفـر صـفيرا أجش مـلأ سمـاء الليل. أطامن الآن من اندفـاع سـاقـى اللتين لهـمـا ارادة خـاصـة ويائسـة ومـسـتـقـلة. ولكنـى لا أجـد فى صـدرى حـرجـا، أى حـرج، ولاأجـد أنفـاسى تتـدافـع، بل كل شئ هـادئ وفـسـيح، وأنا وحدى، لاأريد شيئا، ولست حزينا، ولاقلقا، ولا واجفا، بين القضبـان المتواصلة المتباعدة فى باحة هذه المحطة الساكنة الآن تحت السمـاء الخالية.

وسمعت النداء.

من ينادينى؟

كنت فى الشارع النظيف المبلط بالبازلت الأسود المحدب قليلا، فى وسط ساحة ضيقة تلتقى فيها قضبان الترام الدائرية التى تلمع من المطر، وقد أقلع الآن وترك فى السماء سحابا أبيض يطفو على الزرقة المغسولة. وأنا أريد أن أعبر الشارع من أمام جدار مدرسة السبع بنات المصمت الطويل المرتفع وقد نشع ماء المطر عند أعلى بياضه الكابى قليلا.

عسكرى المرور يستدير وينظر إلى من أعلى بوجهه القاتم المدفون العينين، ليس فيه أدنى تعبير، ويرفع ذراعه، يفتح لى الطريق بلا عناية.

أخطو خطوتى الأولى، وإذ بالساحة قد ازدحمت مرة واحدة بأربعة تراموايات قادمة هاجمة، مقدماتها الزرقاء عالية، مسدودة، تقتحمنى وأنا فى سرة الساحة التى ضاقت على جدا. والسائقون الأربعة الذين أراهم كثيرين، بلا عدد، من وراء الواجهات الزجاجية المرتفعة، مهددين يمسكون بالعصى النحاسية الأفقية - القصيرة بقوة وتمكن يهزونها أقل اهتزاز، بتصميم والتراموايات الأربعة جميعا من كل الجهات تندفع إلى على قضبانها فى زئيرها الهادر. لا وقت للرجوع ولا للتقدم ولا للحركة فى أى اتجاه.

محاصر، بل قد أطبق على الحصار.

لاأريد أن أموت وأنا محاصر.

أنا الذى دفعت بنفسى إلى هذه البؤرة التى لاخلاص منها، وكأننى أنا الذى دعوت هذه القاطرات التى تقتحم على العالم، وتسقطنى فى هذه الحلقة المتزلزلة بالطاقة المهددة. فإذا لم أستطع أن أحطم الحصار؟ كيف أثبت له؟ وكيف أخرج؟ وهل أنا الذى جئت بنفسى فعلا إلى هذه الوحدة التى تضيق على، بقوتها المداهمة المتفجرة؟

وأنا فى وسط القضبان وحدى على البازلت الأسود الشرير الذى يومض. والتراموايات جميعا تنقض على، لعجلاتها صوت احتكاك الصلب، ثاقب تقشعر له كل جوارحى وتصطدم فى دوى تتخبط له جدران الشارع. تقرقع وترتطم، ثم يحل صمت تام. وأرى السحاب الأبيض ينزلق على هواء البحر المبلول.

وأسمع النداء باسمى.

من ينادينى؟

كانت تقف وحدها على الرصيف تحت ربوة الرمل العالية الناصعة البياض، والنور ينسكب بين الأعمدة

الباسقة بأغصانها الحديدية الوثيقة الحنان، من زجاج السقف بعروقة الصلبة الرقيقة، ورواسب الدخان القديمة باهتة عليه، مشعة بما تتشربه من صفاء زرقة السماء.

وجهها المدور بسمرته الرقراقة يضئ، وشعرها القصير المغوى تحيطه هالة من وهج شمس الظهر، وكأنه ذهبى مع أنه وحى السواد.. عيناها تضربان قلبى بخضرتهما الحوشية، صدرها بكبريائه ولدونته يداى تحدسان - وكأنما تتذكران - نعومته وحجم دورانه وتماسكه الطيع، وهى شبقية كأكثر مايمكن، كأخصب واملأ مايمكن. هل هى التى تناديني؟ وفى عينيها هذه النظرة التى كأنها متحيرة، وهى عارفة. هذا الضوء الذى يسقط عليها إنما ينبع منها، مثيرة ومحبوبة بما لايمكن أن يقاس.

دموع العمر كله لن تغسل وضر القلب الذى يشتعل مع ذلك بوجد ساطع اللظى. محرق. أهو مطهر من اللوثات؟

كانت لدنة، مليئة، فى فستان حريرى مقفل على رقبتها، وهو يسلم عليها. أحس يدها الرخصة متروكة له من غير رسالة. فلم يقبل. جاش فى صدره أنه يريد أن يقول لها كم يحبها. امتدت يده إلى مؤخرة رأسها. فى يديه من جديد

دغدغة الشعر القوى الوحف، حس النعومة وخشونة الملمس معا فى أطراف شعرها وعمقه. وقبلها بصمت على فمها المبذول بصمت، فى الأول، المستسلم من غير حركة، ثم ارتعش فمها تحت شفتيه، صدرها المحبوك يرتفع تحت صدره، يده تتلمس مؤخرة عنقها الغضة، أنفاسها تتسارع باللهفة القديمة التى يعرفها وتثيره، تنتقل إليه قبلتها، شفتاها متطلبتان متلمستان الآن تضغطان على شفتيه، فيهما اجابتها، كأنما تطلب النجدة من الوحشة، وتستغيث من القهر الجسدى.

ثم انفلتت عنه بسرعة ورفق وتحوط، وهى تنهج، وقد تضرج الدم فى سمرة خديها الرخيمة الملمس، وعيناها فيهما هذه النظرة الغائبة، صافية جدا، خالصة من كل غربة، وكأنها فى الوقت نفسه مستغرقة فى غربة نهائية.

كانت هى التى أفاقت.. أولا، من بهرة المفاجأة.

قالت له: القطار..

قال لنفسه: الحلم الحلم الحلم. وجوده الحجرى الآن ثقيل. يتطلب أن يرفع عن كتفى.

وقال: كان الحلم خفيفا، وطائرا محلقا بين السحاب أرنو اليه بعين الاطمئنان، كأنه فى متناول اليدين.

أما الآن فقد سقط على بثقله الركين، ينوء بى، لاأستطيع أن أنهض به من الأرض.

ساقط أنا تحت وطأة الحلم لم أعد أقوى عليه.

يداى خاويتان تحتكان بالحجر والرمل الخشن، على مشارف مدينة منتهكة.

(٥)

كنا عائدين للاسكندرية بعد أن قضينا الصيف فى الطرانة قرية جدتى. ذهبنا من السكة الزراعية، على الترعة الكبيرة المتدفقة بمياه الفيضان الحمراء السريعة الجريان. وكنا نركب أنا واختاى الصغيرتان على حمارين، ومعنا الولد برسوم، ابن أرسانى أفندى خال أمى، يجرى حافيا ـ مع أنه ابن باشكاتب العزبة ـ إلى جانب الحمارين. رفع جلابيته بيده، وخلع حذاءه الجديد ووضعه تحت أبطه، وأخذ يحث الحمارين بعصا قصيرة من خشب السنط. وكان برسوم أصغر منى قليلا ولكن معرفته بأمور النساء واناث الحيوان أكبر مما أعرف بكثير، حتى ولو كنت قد

سبقته، من زمن، فى يقظتى الشبقية. وكان قد حكى لى طول الصيف عن مغامراته المراهقة مع القطط على سطح البيت فى ليالى القمر، ومع الحمارة البيضاء فى الغيط، وعن حكايات نسوان القرية وما يفعلنه فى الذرة مع الرجال. وكانت حكايات.

ولما وصلنا محطة كفر داود، كان قطار الصبح قد قام وفاتنا. وجلسنا ننتظر قطار العصر فى المحطة الصحراوية الخاوية، ولعبنا الاستغماية فى المحطة كما كنا نلعب مع لنده ورحمة تحت شجرة الجميز الكبيرة أمام بيت جدتى. وفككنا الحبل من حول القفة الكبيرة، وأكلنا من القراقيش التى صنعتها لنا جدتى من دقيق القمح والزبدة، وشربنا من حنفية المحطة.

ركبنا قطار الخط الغربى بعرياته الخشبية القليلة المقفلة، وكانت النار تتوهج فى نور العصر بحمرة اللهب الذى يفح ويتقد، مليئا ومتواثبا بقوة فى بطن القاطرة المدور الأسود.

وعندما كان القطار الرقيق الصغير يشق جسم المساء بعرياته المتأرجحة كنت أرى على جانب القطار عيدان الذرة

محترقة وعارية، فى آخر نور الشمس، نزعت عنها أكوازها المغلفة بقشرتها الدسمة الخضراء المضمومة، ووضعت الثمار الغضة فى أكوام عالية متحدرة على رؤوس الغيطان، وحطام أوراقها متناثر على سواد التربة، صفراء وهشة.

وانطلقت فجأة على الترعة العريضة أسراب متعاقبة من العصافير، داكنة اللون كأنها خفافيش صغيرة، أجنحتها رفيعة وطويلة ومشدودة حتى آخر أطرافها، ترف قريبا جدا من سطح الماء.

وقبل ايتاى البارود كان الليل قد نزل ونامت أختاى على المقعد، وأضيئت المصابيح فى العربة، مطلية بالأزرق، طويلة، وبيضاوية، تريق نورها المنهك على المقاعد المصنوعة من ألواح رقيقة متلاصقة من الخشب اللامع.

ومر القطار بعربات الجاز الصغيرة عليها خط عريض أسود ينزل من الصنبور الأفقى فى أعلى العربات ويلف على بطنها الداكن الحمرة فى عتمة الليل المشعة، وهى مركونة على القضبان الجانبية فى ساحة المحطة.

كانت محطة ايتاى البارود مظلمة تماما بالليل. وكنا قد نزلنا من الخط الغربى وصعدنا على الكوبرى المعدنى

العالى فوق الأرصفة والقضبان، ونزلنا، أنا أحمل الشنطة المصنوعة من الورق المقوى البنى التجزيع تقليد الجلد، وأختى عايدة ترفع على رأسها القفة الكبيرة الثقيلة التى تكدست فيها القراقيش، والوزة المذبوحة، وصفيحة السمن الجاموسى، كلها ملفقة ومدكوكة ومصطفة بين اللفف والجلاليب المغسولة والفوط، وقد ربطنا اللحاف القديم داكن اللون فوق القفة بحبل متين، مكشوفا للعيان وله رائحة، أما أختى لويزة فكانت تضم بين ذراعيها ثلاثة لفف صغيرة مربوطة بخرق من القماش.

جلست بجانبى من ناحية، أختى عايدة التى ما كادت تبارح طفولتها بعد، ما يكاد صدرها الصغير يرفع فستانها الكستور الطويل، سمراء صعيدية، شعرها جعد خشن يؤكد بسواده سواد عينيها اللوزيتين، بنظرتهما الحزينة، ومن الناحية الأخرى أختى لويزة، الصغيرة، بوجهها الأبيض وجسمها الممتلئ الطفلى، والتصقتا بى من برد الليل. كنا قد وضعنا الشنطة والقفة واللفف الأخرى الصغيرة على الأرض تحت المقعد الخشبى المقعر الظهر الداكن الخضرة فى الليل، أمام جدار مبنى المحطة المظلم. كان مكتب الناظر وحده فيه نور أزرق كاب منصب مباشرة على عدة

قطع التذاكر الحديدية الصغيرة، وراء الشباك بقضبانه المتقاطعة وفتحته الصغيرة.

دخل المحطة بصمت قطار عسكرى طويل. الأرقام، والكتابة الذهبية الباهتة، غير مقروءة على بطن القاطرة المدور، والعربات لا نهاية لها، غاصة بالجنود الإنجليز، امتلأت النوافذ المفتوحة بوجوههم الملتبسة وأذرعهم المكشوفة فى القمصان الكاكى بنصف كم، فى النور الأزرق الشحيح، وهم يطلون على المحطة فى نصف اليقظة ونصف النوم.

كان العطشجى فى أول القطار يملأ خزانه بالماء الذى كان له صوت صلب متدفق وأجش اذ ينصب من خرطومه المضلع الثقيل الجلد المثبت فى الصنبور الأرضى الضخم. وكان القطار أمامنا على الرصيف، يقف موحشا ومعزولا لم ينزل منه أحد ولم يصعد إليه أحد، ولم يقترب منه أحد إلا باعة السميط والجبن واليوسفندى الذين تخطف العساكر بضاعتهم الهزيلة الشكل، وكانت صيحات المساومة بالإنجليزية المكسرة والعربية المكسرة تتجاوب فى الليل. هرب بعض العساكر إلى داخل القطار دون أن يدفعوا،

وجرى البائع على الرصيف من نافذة إلى نافذة ينادى جونى جيف هير فايف بياستر جونى فايف بياستر، وضحكات رفيعة وغير حقيقية، عبث الذاهبين إلى موتهم صبيانا أراهم من النافذة ليسوا أكبر منى إلا بقليل، ناموا على المقاعد الخشبية فى شحوب النور الأزرق. وانحنى ولد منهم له وجه طويل نحيل باهت اللون من النافذة أمامنا وهو يشير إلى أختى التى التصقت بى أكثر، وعيناها السوداوان مفتوحتان على سعتهما وليس فيهما خوف بل سؤال صامت عميق. وقال الولد بلهجة لم أكد أفهمها: بنت بنت كام أون.. فانتازيه.. كام ويذمى، وهو يضحك، وأحسست الدم يتدفق إلى رأسى وصحت به بصوت سمعته مخنوقا وأبح: شط أب شط أب بوبلدى بالسترد وضاعت صرختى ورأيت الولد العسكرى يذهب فى الليل فاغر الفم يضحك ولا أسمع له صوتا إذ تحرك القطار فجأة وهو يصفر صفيرا أجوف غائر الصدى وينفث بخارا أبيض كثيفا فى الظلام، ومرت النوافذ متسارعة الايقاع متتابعة مليئة بالوجوه الباهتة التى كأنما هى من الآن وجوه الميتين. ثم جاءت العربات المكشوفة المسطحة الأرضية تحمل دبابات صغيرة صفراء مشرعة المدفع مربوطة بسلاسل

قوية، ومعدات مفكوكة، وغامضة، مدببة الحواف، مغطاة بأغطية من المطاط الأسود الثقيل. وسألتنى أختى لويزة ماذا كان يقول العسكرى الإنجليزى فرددت عليها بخشونة وعنف لاشىء لاشىء أخرسى أنت كمان فصمتت ورأيت الدموع تلمع فى عينيها ولاتتسكب.

ساد المحطة صمت مفاجئ وأحسست هواء الليل باردا على وجهى الندى بالعرق.

ضممتها إلى نحن نقف على الرصيف الخالى تحت السقف الزجاجى المنير وأحسست صدرها الحريرى فى حضنى، صامتة الآن مستسلمة وقد أغمضت عينيها.. استكنت ريحاناى الخضراوان فى رقرقة الحب الذى لم أكن أعرف عندئذ مدى الوجع الذى سوف يمضنى من فقدانه ولا مخض الألم الذى سوف يطوح بى الآن فى وحدتى الصامتة. لأواء هذا الصمت الذى يجأر وحشيا وليس له أبدا لغة ولا صوت.

وعندما جاء القطار أخيرا دخل على الرصيف الآخر البعيد ولم يكن فى المحطة الصحراوية الصغيرة نفق ولا سلالم.

جرينا معا متماسكين بالأيدى إلى آخر الرصيف، وهبطنا، تتسارع أقدامنا بالرغم منا على نهاية الرصيف المنحدرة، ونحن ننظر لأحدنا الآخر، وكدنا ننزلق على القضبان المزدوجة، وضحكنا.

والقطار يتحرك إلينا فجأة ونحن تحت. تعلو مقدمته الحديدية المربعة الشكل البارزة إلى الأمام، فوق رأسينا مباشرة. وأرى الخطوط العريضة المعدنية لا ايقاف لها أمام عينى، قريبة جدا. ساقاى تفلتان منى وأسقط على القضبان، أمام المقدمة تماما. ويخطف فى قلبى الروع عليها. أين هى؟ أسالمة هى؟ ألم يحدث لها شىء؟ حنوى لها يعصف بى وأنا على الأرض. السائق يطل من باب القاطرة على جنب يشور بيد ويهتف بشىء لا أسمعه، ويده الأخرى فى الداخل تضغط على شىء ما، على عمود، أو زر، أو علقة. وأحس يدى على الزلط والرمل الخشن تضغطان منه بقوة، بشدة، بكل ما فى جسمى من أيد وإصرار، لكى أوقف معه القطار الزاحف علينا بجرمه الضخم، ببطء، كأنما لن يرده شىء أبدا، فيه طاقة مكبوحة وساحقة. وأرى المصباحين الأماميين المستطيلين برجاجهما الصلب المطفأ تومض عليه أشعة الشمس

وتنعكس على عينى. وأجدها معى تسندنى بذراعيها كلتيهما، وأنا أقوم بحركة أحسها بطيئة لاتنتهى، وقد نزف من قلبى كل حس كأننى غريب. ونحن نتحرك معا أمام القطار الذى ينساب وراءنا مباشرة، باصرار. والرصيف قد امتلأ فجأة بالناس يصرخون، لابد أنهم يصرخو ن ولكنى لا أسمع صوتا، ويلوحون بأذرعهم ويجرون على الرصيف معنا وينحنون ناحيتنا، يصيحون بنا بلا شك، ومازلت لا أسمع شيئا. قدماى تتحركان أمام مقدمة القطار بالضبط ليس بيننا وبينها إلا خطوة واحدة لا تزيد ولا تنقص. لا يصطدم بى القطار ولا أسقط تحته. وهى معى لا أحس إلا بذراعيها تمسكان بى مسكة خفيفة ولكن واثقة لا تتركنى. وجهها هادئ وعيناها تلمع فيهما الشمس بخضرة داكنة ليس فيهما خوف ولا قلق بل لايكاد يكون فيهما اهتمام وإن كانتا مغروزتين فىّ، ونحن نتحرك معا بايقاع واحد، بضع خطوات أيضا، طويلة فى الأحساس جدا، وكأننى أرقب شخصا آخر يداهمه القطار ومعه حبيبته، متفرج، مدرك تماما للخطر، ولكن بلا أدنى رعب، ولا أدنى توجس، أنتظر فقط. لو جاءت الصدمة النهائية الآن، وسقط كل شىء. لو تحطم كل شىء. لو حلت الظلمة الأخيرة والصمت. طبيعى،

وحتم، وأكاد أريده، ولا أرحب به. ولكن لا أرفضه، لا أستسلم له أبدا. ولكن فليأت.

القاطرة مازالت تزحف علينا، تنزلق، وتكاد تلحق بنا. حتى يستطيع السائق بجهد جهيد أن يوقف القطار.

ونتوقف لحظة ومازال الصمت حوالينا ساطعا وفسيحا وكاملا. ينحنى الناس علينا يمدون إلينا أذرعهم ويرفعوننا من تحت.

للمرة الأولى أسمع لغط الناس وصياحهم ونداءاتهم ودبدبة أقدامهم على الرصيف.

الشيخ الذى يلبس جلبابا أبيض مكويا له ياقة رفيعة قائمة تدور حول عنقه الضامر، وعلى رأسه طاقية من نفس القماش، فى يده مسبحة ويده الأخرى متوترة الأصابع مشدودة نحوى، وأسمعه، وهو يهمس: لاحول ولاقوة إلا بالله. الحمد لله.. الحمد لله. والست الفلاحة البيضاء الوجه، بالملس الأسود المكشكش الذى انحدر على كتفها، وهى تهتف: اسم الله عليكم يا ضنايا.! دانتور انكتب لكو عمر جديد، ياختى! اسم الله عليكى يا حبيبتى! اللهم حوالينا ولا علينا. والطلبة، بالبنطلونات والقمصان، والكتب

فى أيديهم، ينزلون جريا إلينا ويحتاطون بنا. والفلاحين بأجسامهم النحيلة تحت الجلاليب الصوف المفتوحة عن الصديرى المزرر بأزرار صغيرة كثيرة، ووجوهم الصلبة المشققة، قد ركعوا نصف ركعة على الرصيف لا يتكلمون، على استعداد أن يهبطوا للمساعدة. والعساكر بملابسهم الكاكى وأحذيتهم السوداء الطويلة قد لحقوا بنا والتفوا حولنا الآن يضحكون بخشونة وارتباك بعد التوتر والشدة، ويرفعوننا على الرصيف بسواعد قوية. ونحن نعلو على هذا الجيشان المحتشد من الأذرع والأيدى واندفاع النجدة المتدفق بالتهنئة على السلامة والحمد لله.

ثم انفض الجميع فجأة واتجه الناس إلى أبواب القطار كأنما بخجل قليل واضطراب بين الضحكات القليلة وثرثرة الحس بالنجاة والانصراف إلى ركوب القطار.

هل كان بالأمس فقط أنه صحا من نومه جنبها محاذرا أن يوقظها، وقبلها مع ذلك قبلة خفيفة جدا على شفتيها، فردت على قبلته وابتسمت وهى نائمة؟ ونزل، حريصا على صمته وهدوئه، وانتهى من «طقوس الصباح» - كما كان يقول لها، فيضحكان - ولبس فى السكون الصباحى التام

وهى مستغرقة فى نومها على سريرها؟ كانت قد قالت له سريرنا.

وكانت الملاءة الخفيفة تغطيها حتى الوسط، وفخذها العارى السمراء، محتشدة بشبقيتها وجسدانيتها، تخرج عن الملاءة، وفخذها الأخرى كامنة مستترة، ولكنها هناك. كتفاها المدورتان تدعوان شفتيه، وشعرها الأثيث مندى قليلا من النوم ومشعث قليلا، نزلت خصلة منه رقيقة ومبلولة ملتصقة بجبهتها الصغيرة المستريحة، وخداها متضرجان. كان مستلقية على جنبها. كل معارك شهوتها قد انقضت، لحظة، وتركت جسدها الباذخ بحتا، ممتلئا بحشده الخالص، فى براءته غواية خاصة لا يمكن أن تكون - فى حالة صحوة - بكل هذا الكمال. غائبة وكلها هناك فى وقت معا.

وكان الديك الأحمر على الحائط الحجرى يفتح منقاره فى زقائه الصامت المتصل وعيناه متوقدتان.

انحنى عليها، حفيا بها ، ورفيقا وساكنا، يرد جواه إلى طى نفسه حتى لاتعصف بها بزحاء شهوته وحنانه معا، ولهفته، بينما كل جوارحه تنتقض عليه، وتجيش وتتوتر.

كان ثدياها مضغوطين تحتها فى النوم، مترفين فى اكتنازهما وحريتهما معا. ثمرتاهما الداكنتان قائمتان مع ذلك، مترعتان، جلدهما المشدود المدور مخدد لا يكاد بشقوق دقيقة جدا، فى نور الشمس المتقطر من النافذة الزجاجية المفتوحة على الصحراء والأنقاض القديمة. أما الوهدات اللينة والربى الزاكية فملتفة بها الملاءة المتغضنة الملتصقة المهملة الثنايا.

أحاط كتفيها بذراعه، وامتدت يديه تسند نهدها المضغوط وتلتف به، وهمس فى أذنها: حبيبتى.. فتململت قليلا فى راحة، وتنهدت. وأحس نهدها وادعا إلى يده ومطمئنا فيها. ورفرفت عيناها قليلا وهى تموء من داخلها: أممم.. بصوت خفيض مبطرة بالنوم الوثير. قال: أمشى أنا الآن. مسافر اسكندرية، وأعود الخميس بعد غد. خليك، لا تقومى. أراك بخير. قالت ومازالت نائمة بالفعل وهى تعطيه خدها لقبلة سريعة: مع السلامة يا حبيبى.. لا تتأخر.

وأغفت فى صمت فى ليل نومها المضىء، لحظة، فى أول الصبح. لم يكن قد خطا خطوة واحدة. وعندما اعتدل

واقفا استدارت على ظهرها وفتحت عينيها الواسعتين صاحية فجأة وقالت، بصوتها الطفلى المستعطف، فيه شكاة قليلة وتطلب للحنان:

- هل عدت يا حبيبى؟ حمد الله على السلامة. كم كان سفرك طويلا. كم افتقدتك.

لماذا تأخرت؟

ترقرقت عيناه على الفور وعرف مرة أخرى طعنة الحب فى قلبه.

وقد استقر الآن على مقعدهما الجلدى الصلب مسافرين معا أخيرا فى هذا القطار يقطع البرارى المتموجة حتى سطوح المياه المالحة المتخثرة بحياتها الراكدة بين البوص والهيش.

ليس فى القطار درجة أولى أو ثانية، والناس حولهما قليلون. عساكر نازلين اسكندرية فى أجازة، خلعوا البيريه العسكرى اللين من على رؤوسهم الحليقة نائمين تقريبا، وقد مدوا أمامهم أرجلهم فى البنطلونات الكاكى والأحذية الميرى. اثنان ثلاثة من البدو، بالملابس البيضاء والسراويل القماشية الطويلة التى تضيق عند نهاية الرجلين، فى

وجوههم نحول وصفرة محروقة. وشاب أعمى من المعهد حليق جدا ومتيقظ جدا، رفع رأسه إلى فوق بعمامته الحمراء الملفوفة بالشاش الأبيض، وجبته الطويلة على قفطان مخطط لامع، يقرأ بصوت خفيض ولكنه قاطع واضح: «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى» والست البدينة أم ملس واثقة بجسمها الفياض بالأنوثة المتمكنة، تمصمص بشفتيها اللحيمتين: يا خويا.. صدق الله العظيم يا مولانا.. ثم تدخل فى حديث طويل مع فتى واضح أنه طالب عائد لجامعته فى اسكندرية، البلوفر الخفيف على قميصه الأزرق الفاتح المستورد، والبنطلون الجينز، لاشك اشتراها مخفضة ببطاقة الجامعية.. وأنت يابنى فين؟ فى الهندسة؟ ربنا ينجح مقاصدك ويخليك لشبابك أنت واللى زيك يارب. طب دانا عندى ولد فى الثانوية العامة السنة دى حيموت نفسه فى المذاكرة ياعين أمه.. نفسه يروح الطب والا الهندسة. ربنا ينوله اللى فى مراده هو والسامعين، وهى تنظر وفى عينيها حساب ووزن، للفتاة بالمنديل الأبيض السابغ الذى يلف وجهها وشعرها وينزل من على كتفيها، وفى أذنيها قرط فضى صغير دقيق، وفستانها بأكمام، طويلة ينزل إلى الأرض، وسيور حذائها

المفتوح تضغط على لحم قدميها. والبنت تدخل ذراعها فى ذراع الطالب الذى ينظر أمامه كأنه لايحس ما تفعل. بينما هى ترفع إليه وجهها معابثة ونصف باسمة. والست تقول بصراحة الفهم والقبول: ربنا يهنيكم ببعض يا بنى ويخبز لكم فى الخير.

عربة القطار تقرقع بانتظام، وهى تصطلى بشمس سبتمبر الهادئة، والشبابيك كلها معوجة محشورة فى مجراها وليس لها زجاج، يدخل منها الهواء السخن، قام الفلاح الجاف الجسم يحاول أن يغلق الشباك فى وجه حبات الرمل الذى تسفيه رياح القطار إلى الداخل، ولم يسطتع، فجلس وهو يقول لنفسه شيئا بصوت غير مسموع.

كانت الرمال ممتدة فى نور الصحراء الأبيض حتى الملاحة التى تومض بموج بنفسجى فاتح ماؤه ساكن كالصفيح اللامع، يذوب عند الأفق الباهت الزرقة الذى ترتفع على حافته البعيدة عمائر من الهواء المهتز، ركام من السحب لها طبقات كأبراج كنائس غامضة ثابتة وهفهافة معا، متشععة بلون الملح.

كانت ذراعه قد استقرت على كتفها الراسخة الطيعة، من وراء مؤخرة عنقها التى يحس نعومتها على قميصه الصيفى، ويحس أيضا دغدغة شعرها الجعد اللين، ويده قد هدأت على أعلى ذراعها النازلة تحت الفستان الحريرى فى دوران كامل الامتلاء.

وسأل نفسه: هل انتهى البحث؟ هل وجدت ما أنشده؟ وكان فى داخله يقين لا انكار له. ونادى: يا شبلى يا شيخنا. هل المعرفة دوام الحيرة؟ وحقيقة المعرفة العجز عن المعرفة؟ وقال لنفسه: أهذه جوهرة حبى؟ وكانت مستكنة إليه، حمامته السوداء الوديعة الآن، وردته السرية. نفسها هادئ وايقاع جسدها فيه رضى واكتفاء باللحظة الصامتة المشبعة. فأغمض عينيه عن ثرثرة القطار وجلبة الناس ودقات العجلات المنتظمة الرتيبة التى أتخمت نفسه، مرة أخرى، بالخدر الذى يهبط فى جسمه وتتفتر به جوارحه تحت وقع الهدات المتراوحة فى إصرار لا يخطىء أن يأتى، مرة بعد مرة بعد مرة، دون أن يبدو أن سيكون له أبدا انقطاع.

وحكى لها أنه فى ليلة عيد القيامة الموحشة التى جاءت قبل أن تسقط القدس، عاد ماشيا للبيت فى شوارع

الاسكندرية الصامتة بعد أن انقطعت الترامwايات. كان الاجتماع قد استمر طويلا فى الليل وكان الجدال واللجاج قد عصف وتقلب بالجماعة الصغيرة المتوقدة بالحماسة والشباب. وقال إنه كان قد كتب أخيرا مشروع البيان، وكانوا سيطبعونه من الغد بالاستنسل على الماكنة التى صنعوها بأنفسهم. وقال إن سذاجة ثوريتهم كانت بريئة وصافية وحمقاء قليلا، وكانت غضبتهم حاسمة ورفضهم قاطعا. وخرجوا متفرقين، وعلى فترات، من المنزل الصغير فى المكس الذى كان يقيم فيه سلامة العامل الوحيد فى لجنتهم المركزية المؤقتة. وقال إنه ركب قطار المكس فى الليل، خاويا وقديما وصغيرا، ونزل فى محطة محرم بك، وكان يشبه هذا القطار.

رجعت إلى بيتنا فى راغب باشا وأكلت سمكة بلطى مقلية باردة كانت أمى قد تركتها لى فى طبق مغطى بفوطة نظيفة على مائدة الفسحة العريضة. وأويت إلى سريرى وأخذت أقرأ فى مجلة الشعر الدولية التى كانت تأتينى من باريس، بالبريد، حتى باب البيت. وفتحت الراديو الكبير الذى كانت له واجهة عريضة تضىء، عندما يشتغل، بالنور الأخضر. وتذكرت فجأة أنها ليلة عيد القيامة عندما

سمعت صوت البطرك العجوز المنهك من الصيام الكبير، يرتل بالقبطية أسماء الآباء البطاركة القدامى جميعا من مار مرقس الرسول حتى الأنبا يوساب، اسما بعد اسم يبعث من أغوار القدم ويحيا بالترتيل، من جديد. رقية طويلة التسلسل لا تنتهى. وأحسست فجأة أننى ابن هؤلاء البطاركة العظام، آباء المدينة العظمى الاسكندرية والكور والجزائر، ولا يمكن أن تكون لى إلا أبوتهم، وأن ما كتبته منذ ساعات ونافحت دونه يربط بين قلبى وبينهم وبين الأرض المستباحة، برابطة حميمة خفية لم أكن أتبينها. وعرفت أن هناك تبريرا كاملا لى.

كان الشاب الأعمى يصغى إلى حكايته باهتمام، صامتا ووجهه مضىء ومتأمل وفيه وسامة لم يرها من قبل.

قالت له، هامسة، باسمة: طول عمرك يا حبيبى لك شطحات غريبة جدا.

وفى عتمة خفيفة كأنه يتذكرها ولكنه يعرف أنها هناك، فى نصف حلم نصف يقظة، سمع نواح القاطرة المترامى فى السماء، والارتطامات الحديدية التى يتردد صداها فى الليل الفسيح خارج حيطان غرفته. عويل معدنى شاك

طويل. بينما دق المنبه إلى جانبه يأتيه سريعا وعصبيا ولجوجا. وأزيز طائرة ينطلق فجأة فوقه فيملأ غرفته، يصعد وراءه نباح الكلاب التى تجمعت فى الشوارع تجرى وراء صوت الطائرة وتطارده. كان البرص المصفر البياض ثابتا مقلوبا على بطنه ومفروش الأرجل على سقف الغرفة، فى نور سماء الليل الغامضة، وذيله الطويل لايتحرك. وفكر أن بحر البقر ونجع حمادى قد ضربت وأن الأطفال والعساكر يموتون. ولم يفكر فى شىء آخر.

مر القطار بأسوار عريضة عالية فى الصحراء عليها لافتات ضخمة بالانجليزية والعربية، وبين الأسوار سيارات جديدة مستوردة من ماركة واحدة لم يستطع أن يحددها. مرسيدس؟ فولفو؟ بيجو؟ بألوانها الزرقاء والحمراء والصفراء والفضية، صفوفا متعاقبة لامعة تحت الشمس، كشواهد قبور معدنية.

ثم وقف القطار فى وسط العراء الصحراوى دون تفسير، دون سبب. ليس هناك محطة ولا مزلقان. السكون الغريب يحل فجأة ويصمت الناس مرة واحدة ويهب الهواء المنعش فى الصمت، جافا وخفيفا، وفيه رائحة البحر،

ورائحة الرمل السخن. دخلت من الشباك ذبابة وحيدة زرقاء كبيرة تقلبت ألوان جناحيها الرفيعين فى شعاع الشمس، وهى تئز أزيزا لحوحا عنيدا، يكهرب الأعصاب، وتحوم فى دوائر سريعة متقاطعة، حتى اندفعت فى النور خارج الشباك. قالت الست أم ملاية يا ختى خير اللهم اجعله خير، هو فيه ايه؟ وقام الطالب، سحب ذراعه من ذراع زميلته، وذهب إلى مقدمة القطار ليسأل، ربما، عن السبب. وانخفض صوت الشاب المعمم وهو يلم حوله جبته وقفطانه، يقرا بصوت غير مسموع، وفجأة احتكت العجلات بالقضبان الحديدية فى انتفاضة حادة، وتقلقلت العربات، واستجمع القطار قوته بالتدريج، وانطلق، بطيئا فى الأول ثم متسارعا ثم منتظم السرعة. دون تفسير.

ندخل الآن على الاسكندرية، والعربات تميل وتنحرف إلى اليمين، وتهتز بين القضبان المتشابكة، وتتغير ايقاعات خبطات العجلات اذ تصطدم بالتحويلات المفتوحة. والقطار فوق ربوة عالية ضيقة يضرب بين الأعمدة والسيمافورات التى ترتفع أذرعتها وتنخفض وتومض بالأخضر الكابى بعد الأحمر المحتقن، والشوارع تحت جسر القطار خالية سوادها يلمع ببلل المطر وأشجارها

تبدو، تحت، قصيرة ومقصوصة النواصى، تمرق فيها سيارات قليلة مسرعة. وتتوالى جدران المصانع والمخازن مقفلة وصارمة الشكل. كان البدو الثلاثة صامتين لاينظرون إلى شىء، وجوههم منحوتة وجامدة. والبيوت الفقيرة الجدران عركتها تقلبات الجو والأمطار القديمة والشموس المتعاقبة، أدوارها العليا مفتوحة الشبابيك تتلاحق على مهل كأنها تطل على القطار. وبعد وحشة الرمل ومياه الملح الشاسعة تبدو البيوت دافئة ومكنونة على طواياها الحميمة، تقترب من جسر السكة الحديد المرتفع حتى لايكاد يفصل بينها وبيننا شىء. والقطار يبطىء قليلا فوق الفلنكات ويظهر الآن على جانبه، بوضوح، الزلط والحصى ونباتات الحلفاء وبقع من الخضرة الباهتة، ونفايات ورق قديم وزبالة جففتها الشمس. نوافذ البيوت وشرفاتها الخشبية القلقة تكشف من غير خجل، من غير أدنى حس بالخجل، عن حياة الناس الداخلية وملابسهم الداخلية وأثاثهم الداخلى الرث الكثيف المزدحم بالكراكيب، والجلاليب المرمية على مراتب بلا ملاءات، وفساتين ذابلة الألوان، ومرايا مكسورة الأطراف معلقة بمسمار ودوبارة على الحيطان وفوق الأحواض والحنفيات، والآيات القرآنية

بالخط الثلث الفخم وصور مارجرجس، ويدر لاما، وأسمهان، والملك فؤاد، مقطوعة من المجلات ومعلقة فى براويز مذهبة متقشرة الطلاء.

كان الشاب المعمم قد نام، مال برأسه على ظهر المقعد، والجنود قد وقفوا، طوال القامة، بعد أن لبسوا أحذيتهم، يستعدون للنزول.

وجاء المبنى الرمادى الكئيب بنوافذه الضيقة، المتقاطعة بالقضبان الرفيعة السوداء، وسوره المنخفض الموحش عليه أسلاك شائكة، وقامت عساكر الحرس فى أبراجها صغيرة، كالدمى، على أكتافها بنادق لها ماسورة طويلة هشة.

وتتفتح الشوارع فجأة تحت الأكمة التى ينزلق عليها القطار، وترتفع اعلانات الكينا الحديدية فيها رأس أسد ضخم ووديع ناتىء الأنياب وله عيون انسانية جدا. وثكنات بلوك النظام بجدرانها الكالحة، ونوافذها المربعة، منشورا عليها الفانلات والسراويل العبك المصفرة الطويلة الرجلين، والبدل الكاكى المغضنة الداكنة من بلل الغسيل. ثم مستشفى الرمد يبدو عاليا إلى جانبنا، أنيقا، وحيطانه بالطوب الأحمر الداكن، وله أبراج وأعمدة رشيقة هيلنية

الإيحاء، وحوله أشجار النخل السلطانى السامقة تنوس جدائلها المدورة فى زرقة السماء.

نظر الطالب المترفع إلى زميلته المحجبة المعابثة. بنظرة فيها نصف ابتسامة. وقالت الست أم ملاية ملس حمد لله على السلامة. ولف الفلاح العجوز مسبحته حول أصبع يده، وتتحنح فى تشوف مشارفة الوصول.

ونحن ندخل فى هواء البحر الرطب إلى ساحة معقدة بشبكات القضبان المتوازية والمنفرجة والدائرية ذاهبة فى كل الإتجاهات، وأعمدة السيمافور المتتابعة عن قرب، والمخازن الجانبية الحجرية والخشبية عليها تعريشات كثة من اللبلاب وتحت جدرانها نباتات التين الشوكى والعتر البلدى، والقطارات المركونة الخالية، وعربات البضاعة المقفلة وحدها من غير قاطرات، جدرانها لها لون صدىء وعليها أرقام طويلة جدا بالانجليزية مهملة.

وفى العربة كلها تنهيدة راحة فقد أوشكت رحلتنا على الانتهاء. ثم دخل القطار فجأة فى النفق.

أطبقت الظلمة الكاملة مرة واحدة وارتفعت صرخة ثاقبة قصيرة، من الفزع، وصيحات الركاب الملهوجة. وكان القطار يخبط فى النفق.

خطر فى ذهنه أن هذا النفق القصير تحت كوبرى الحضرة لايمكن أن يستمر طول هذا الوقت. واشتدت ضمة ذراعه حول كتفها، وأحس جسمها الوادع، بكامله، لصيقا به، دفيئا وناعما ومليئا، من غير خوف، فيه الأمن به، والتسليم له.

كان القطار يندفع متحدرا إلى الأمام كأنه يغوص بمقدمته إلى عمق يزداد غورا كلما مضى، يصطدم ويقرقع، فى طريقه إلى جوف الأرض، وقد اضطردت سرعته وكأنها اكتسبت عزما جديدا لن يلويه عنه شىء.

كل شىء يجرى فى ايقاع خاطف، والدقات المتلاحقة تزداد ارتفاعا فى النفق الضيق، ويتضخم صداها إذ تلتطم بجدران الحيز المحبوس. وكأنما تجمد الناس فى هذه الانفجارات المتعاقبة القعقعة، وصمتوا تماما، وتشبث كل منهم بمقعده فى العربة التى تهبط مع سلسلة عربات القطار، لن يوقفه شىء الآن. اصطفاق الحديد ولجب الهدير فى الظلمة الحاشدة التى أخذت تشف قليلا، وهو يرى كل من حوله ساكنين بلا حراك، ولا يرى فى ذلك أدنى غرابة ولا ما يستدعى السؤال.

يحس ثقل رأسها الهين على كتفه، وشعرها الوحف تحت عنقه، مستكنا إليه وهى نائمة. خدينته الموموقة المشتهاة التى لانت له الآن، طيبة فى حضنه، ووثيرة. هناك صمت عميق فى قلب هذا العجيج الموقع المنتظم الدقات. وهى قد ألقت برأسها إليه. كأنما لا مكان لها فى العالم كله إلا على كتفه ولا اطمئنان لها الا تحت ذراعه. وفخذها اللفاء تحت النسيج الحريرى الدمث يحسها إلى جانب رجله. ويدها الرخصة فى يده، على حجره، مسترخية وهادئة فى ثقل النوم.

فى جوف الحوت المقتحم اللجج دعوتك فاستجبت إلى دعائى من قلب نومك. وعندما طرحتنى إلى عمق الجب أحاطت بى مياه الحنو الكثيفة الساجية وانفتح لى هيكل قدسك السلس المواتى، اكتنفتنى غمرات جسدك المترقرق بين ذراعى، فى العتمة الشفيفة، والتف بى عشب البحر الغض المترجرج فى موجه. أحاطت بى وهدتى اللينة وتفتحت لى مغاليق كنزى. وكان اصطفاق الصنوج ساطع الدوى ونهائيا.

واندفع نور الشمس فجأة فى القطار.

في اللحظة التي انتهى فيها النفق أحس أن القطار قد اصطدم صدمة أخيرة بشيء مطاوع وهين القوام. ووقف.

كان الناس يتدافعون بصمت، كأن ليس في الأمر شيء غريب، كأنهم ينزلون إلى المحطة التي يعرفونها، وكل منهم مشغول بهمومه وحده. وثب الجنود، كعادتهم على كل حال، من النافذة. وكان الشاب المعمم هادئا يتحسس جدران القطار وظهور المقاعد الجلدية بيديه، من غير لهفة، في طريقه للخروج. والولد يحيط بذراعه خصر فتاته ذات الفستان الطويل، يسندها، وكأنه غائب لا يسأل ولايهتم حقا، كأنه فقط يؤدي واجبا.

كانا معا متماسكين بالأيدي في ضمة حميمة ويائسة، عندما سقطا من باب القطار في نور الظهر الفسيح. غاصت أقدامهما في الرمل الناعم. وكان شاطيء البحر أمامهما مباشرة، والموج يأتي وينحسر، مياهه المزبدة تضرب صخورا صغيرة مدببة ومشعثة، قديمة الصفرة، منقورة بحبيبات دقيقة سوداء، وتذوب رغوتها بحفيف هين على الرمل، بين الصخور.

مقدمة القطار مدفونة بأكملها فى الرمل، كأنما قذفتها قوة الاندفاع الأخيرة. وبقية العربات مازالت تحت الجسر الحجرى العالى، واقفة فى عتمة النفق المدور الطويل. ولم يعد هناك أحد.

والبحر فسيح، شاسع، نقى الزرقة، تلعب عليه خطوط الزبد المتعرجة ترغى وتختفى. كانت الأعمدة الحديدية الناحلة معوجة وساقطة على الرمل، وأنقاض المحطة تحيط بهما، على شاطىء البحر. الأحجار الضخمة ساقطة وصامتة كأنما أطاح بها زلزال، حوافها مكسورة بين أكوام من الهدد والزلط. وعوارض حديدية محترقة ومتلوية شاخصة من بين الركام. وقضبان السكة الحديد متقاربة من أحدها الآخر أمام مقدمة القطار، ثم متطابقة ومغروزة فى الرمل. وأمواج السقف الزجاجى مازالت معلقة فى الهواء. جانحة، تهدد بالسقوط، ولكنها ثابتة، مدلاة من عمود مائل واحد قد استقر، فى وضع لايصدق، بين نتوءات الرمل والحجر والحديد.

كانت تقف إلى جانبه، جسمها الغض يلخص له العالم، بلغة حميمة من غير صوت.

وتحت أقدامهما مباشرة، تحت حطام المحطة المدمرة، كانت هناك هوة محفورة، عميقة، ضخمة وواسعة، وجدرانها المتماسكة غائرة. وعلى قاعها العريض، تحت، بعيدا، تتحرك قامات صغيرة تحمل على أكتافها قفف الأسمنت المخلوط. من أين جاءوا بها؟ ليس هناك على الحافة إلا كتل مكسرة متهاوية تكاد تنقض من على طرف الحفرة الفاغرة، والأرض رملية تحتها، هشة ومتفتتة.

ورأى، من غير دهشة، اثنين من الصعايدة، تحت، ينفصلان عن صف الناس، رآهما صغيرين جدا كأنه يطل عليهما من حالق، يتحركات حركة ايقاعية بطيئة موزونة، وفى إيدهما عصى التحطيب، مرفوعة، وهما يصطدمان بالعصى، ويناوران، يرجعان ويتقدمان، يتقاربان ويتباعدان، ويدوران أحدهما حول الآخر فى رقصة موسيقى رجولية، والجسم مشدود بكبرياء وخفة.

أحس الحافة تحت قدميه تكاد تفلت وتتداعى، فاشتدت قبضته على يدها.

هبت رائحة البحر ملحية ومطهرة. ونظر إليها، ولم يتكلم، ولم يبتسم، كانا، فقط، فى وسط الأنقاض، معا.

الاسكندرية أبريل ١٩٥٥

القاهرة نوفمبر ١٩٨٤

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٤٥٤ / ٢٠٠٤

I.S.B.N 977-01-9108-6

مهرجان القراءة للجميع

مكتبة الأسرة

هذا العام نحتفل ببلوغ مكتبة الأسرة عامها العاشر وقد أضاءت بنور المعرفة جنبات البيت المصرى بأكثر من ٨٠مليون نسخة كتاب من أمهات الكتب فى فروع المعرفة الإنسانية المختلفة.. ومنذ عشرة سنوات تفتحت عيون أطفال كانوا فى العاشرة من عمرهم على إصدارات مكتبة الأسرة وكانت زادهم المعرفى عبر السنوات العشره الماضية لتلهب فى تلك العقول الشابة الآن نهم المعرفة من خلال القراءة وكنا ندرك منذ ... المعرفة هى سلاحنا الأمضى لتأخذ مصر مكانتها فى ذلك العالم الجديد الذى تتفوق فيه ... والمال لأنها تحمل الإنسان إلى آفاق لا حدود لها فى عالم متغير شعاره ثورة المعلومات و... كل وسائل الإتصال ولم يكن منطقيا أن نقف مكتوفى الأيدى . فكانت مكتبة الأسرة ب... أساسية نستقبل بها ذلك العصر الجديد، عصر المعرفة وإننا لنتطلع فى الأعوام القاد... الأسرة ثمارها اليانعة وتساهم فى التغير المعرفى والتكنولوجى لمعطيات العصر لتفس... يشارك بدور فاعل فى تقدم البشرية الجديد لتكون امتدادا حضاريا معاصرا للحضارة ... التى كانت أهم وأقدم الحضارات الإنسانية عبر التاريخ.

سوزان مبار...

مهرجان القراءة للجميع
للطفل - للشباب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

السعر ١٥٠ قرشاً